الفضيلة والفضائل

الدكتور
أحمد عبد الرحيم السايح

مركز الكتاب للنشر

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

مركز الكتاب للنشر

مصر الجديدة: ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
ت: ٢٩٠٨٢٠٣ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس: ٢٩٠٦٢٥٠

مدينة نصر: ٧١ شارع ابن النفيس - المنطقة السادسة - ت: ٢٧٢٣٣٩٨

تقديم

لفضيلة الدكتور: الحسينى عبدالمجيد هاشم

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

الحمد لله رب العالمين حمداً يوافى نعمه، ويكافىءُ مزيده، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن خير ما ينبثق عنه إيمان المؤمن، أن يدعو إلى الله على بصيرة وهدى.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾(1).

يدعو الناس إلى التمسك بالدين، وبما يشتمل عليه من أخلاق فاضلة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾(2).

لقد جاءت الشرائع السماوية كلها تنير الطريق للناس، وتوضح لهم سبيل الرشد، واتفقت جميعها فى الدعوة إلى التوحيد.

والفطرة الإنسانية عندما يعرض عليها أمر التوحيد لا تجد منها إلاَّ الإذعان والقبول.

والتوحيد مبدأ الإسلام وجوهره، وهو ليس مجرد قول يقال، لا أساس له فى القلب والشعور، بل هو إيمان يملك على الإنسان جميع أقطاره، فيتغلغل فى جميع أنحاء شعوره ووجدانه، ويغمر قلبه ونفسه فيوجهه الوجهة السليمة نحو إسلام الوجه لله.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾(3).

---

(1) يوسف: ١٠٨.

(2) آل عمران: ١١٠

(3) النساء: ١٢٥

فجوهر الإسلام فى العقيدة هو إسلام الوجه لله، والإيمان بوحدانيته، وذلك من كمال الإيمان.

هذه هى معالم التوحيد فى العقيدة، أما معالم التوحيد فى الأخلاق، فهى أن لا يصدر من الإنسان ولا يرد فى سلوكه الشخصى، أو فى سلوكه الاجتماعى، إلاَّ ما كان مطابقًا لتعاليم الإسلام، فلا يكون إسلام المسلم إسلامًا كاملاً حتى يكون مثلاً من نبيه فى أخلاق الله.

والقانون الجامع لمعالم التوحيد فى العقيدة والأخلاق، قد فسره الله سبحانه حينما وضح ذروته ممثلة فى شخص الرسول ﷺ إذ يقول له:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾[1].

وهذه الدرجة من الأخلاق ذروتها وسنامها، ويقترب الإنسان من المثل الأعلى بمقدار قربه من هذه المعانى، عقيدة وعملاً وأخلاقا.

والكتاب الذى نقدمه (الفضيلة والفضائل فى الإسلام) لفضيلة الأستاذ: «أحمد عبد الرحيم السايح» المدرس فى كلية أصول الدين بالأزهر الشريف هو دعوة للتَّمَسُّكِ بالقيم الأخلاقية الأصيلة، التى تأخذ بيد المسلم إلى الرقى والحضارة.

وقد حوى الكتاب أهم الفضائل التى جاءَ بها الإسلام، من الصدق والوفاءِ والإحسان وغير ذلك من الفضائل التى تناولها الكاتب فى كتابه، والتى لو توافرت فى مجتمع لكان مجتمعًا مثاليا تسوده روح المحبة والتعاون، ولعاش أفراده فى سعادة وأمن وطمأنينة، وأصبحوا كأنهم ملائكة.

وإننا إذ نقدر للكاتب جهده، نرجو الله أن ينفع المسلمين بما قدمه من دراسة قيمة، وتوجيه وتوضيح للفضيلة والفَضَائل، والله الهادى إلى سواءِ السبيل.

دكتور/ الحسينى عبد المجيد هاشم

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

---

(٢) الأنعام: ١٦٢.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على الرسول الصادق الأمين خاتم الأنبياء والمرسلين وبعد:

فقد جاءَ محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام بالهدى، ودين الحق، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور. جاءَ بالإِسلام دين الله للعالمين، رافعاً مدارك البشرية، ومبيناً لحقيقة الرسالات السماوية، وتدرجها مع حقب الزمان، ومتطلبات بنى الإِنسان، جاءَ بالقرآن العظيم، كتاب الله المبين، إِلى خلق الله أجمعين، مصدقا لما بين يديه، ومهيمناً عليه.

وسرعان ما كتب الله للمؤمنين التوفيق والنصر، ولكلمة الله الانتشار، حتى عمَّ خيرها سائر الأقطار وما وراءَ البحار، ودفعت بالإِنسانية إِلى قفزة طويلة، على طريق الحقيقة، والنور والتقدم، ما كانت لتصل إِليها أبداً بغير هذه الدفعة التى كانتْ من أعظم نعم الله على العالم، ففتحت الباب أمام الفكر والعقل، فارتفع الوعى الإِنسانى، وكانت البحوث النافعة، وكان الإِقبال على العلوم والفنون، بكافة صنوفها وفروعها، وكان الإِخاءُ الإِنسانى، وكانت المساواة الحقة حيث لا فضل لعربى على أعجمى إِلا بالتقوى.

وهكذا فعلت العقيدة الحية، التى جاءَت وقت بلوغ العقل البشرى، طور رشده وكماله وتفتحه فعلها فى النفوس.. فهى تقر التوحيد الخالص البالغ أرقى صوره وأشكاله، وترفع من قيمة الإِنسان، لأنها تصله بخالقه ومبدعه: ﴿قُلْ هُوَ

اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾[1].

وعقيدة الإسلام لا تبيح للإنسان أن يتعلق بالمخلوقات ، أو يدعو ويعبد غير الخالق، الذى أبدع وفق حكمته جميع ما فى الوجود : «إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله».

والإسلام من جهة أخرى دين اجتماعى يراعى حاجة الإنسانية ومصالحها الحيوية، فى حدود الحق والفضيلة والشرف، وهو الذى يستطيع بتعاليمه السمحة، أن يقيم المجتمع على أسس القيم الأخلاقية العليا، ويرضى مطالب الروح والجسد، ليتوافقا فى اعتدال، ويكونا حقيقة الإنسان المهذب والمؤمن الكامل. وبالجمع بين السمو الروحى والتهذيب الاجتماعى، أمكن للإسلام أن ينتشر فى أركان الدنيا بالعدل، والحق ، والأخلاق، وسمو المبادىء، وما من شىء يهم الإنسانية إلا وله فى الإسلام هدى وبيان، وما من شىء يلامس حياة الناس إلا وله فى الإسلام عرق ينبض، وأصل عريق. وتعاليم الإسلام صالحة لكل زمان ومكان، وما فى الإصلاح الإسلامى من كليات وجزئيات كفيل بقيام مجتمع إنسانى تسوده روح الصدق والمحبة والتعاون والبر والوفاء والإخلاص.

وكتاب «الفضيلة والفضائل فى الإسلام» دعوة إلى التمسك بالقيم الأصيلة التى تأخذ بأيدينا إلى الرقى والحضارة. . وأمتنا الإسلامية تنشد الفضيلة، وتربى عليها الشباب. لهذا كان من حق العلم أن يكشف عن فضائل وقيم وآداب ، أسأل الله أن ينفع بها.

والله ولى التوفيق

أحمد عبد الرحيم السايح

---

(١) الإخلاص: ١ ـ ٤.

إنسانية الإنسان فى الإسلام

الإنسان أكرم الكائنات على الله، خلقه فى أحسن تقويم، وتولاه بالإلهام والتعليم، وحلاه بالعقل الكريم، والقلب السليم.

فقال تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(١).

وفى هذه الآية يخبر الله سبحانه وتعالى. . أنه خلق الإنسان فى أحسن صورة وشكل، معتدل القامة، مستويا على عكس الحيوان.

وبجانب هذا . . أعده الله لشرف خلافته فى الأرض. . قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(٢) وهو وإن كان مخلوقا من الطين، إلا أنه منح من شرف الروح ما تقصر دونه الخواطر وتعيا عن إدراكه المدارك.

وناهيك بروح نسبها الله إلى نفسه. . وأسجد لحاملها ملائكته. فقال تعالى : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(٣).

بهذه الروح امتاز الإنسان ، عن سائر عوالم الطبيعة، وصار عالما وحده، حاصلا على القدرة فى استخدام الوجود، وتسخيره فيما ينفع. . وقد أمده الله بما يناسب مطامحه، من حول وقوة، ووطأ له أكناف الكائنات، وذللها له.

ومن هذا ندرك. . أن الإسلام ينظر إلى الإنسانية عامة، نظرة التكريم والاحترام، ويرتب على ذلك حقوقاً عامة لجميع البشر.

فالعدل، والرحمة، والمساواة، فى الحقوق والواجبات. . أمور يفرضها الله لجميع الناس، ما لم يكن اعتداء، وخروجًا على سنن الله.

---

(١) التين: ٤.

(٢) البقرة: ٣٠.

(٣) ص: ٧٢. .

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(١).

فكرمنا فى الآية الكريمة، تضعيف «كرم» أى جعلنا لهم كرماً وشرفاً ، وفضلا. . وهذه الكرامة، يدخل فيها خلقهم على هذه الهيئة فى امتداد القامة، وحسن الصورة، وحملهم فى البر والبحر. . مما لا يصح لحيوان سوى بنى آدم أن يحمل بإرادته ، وقصده وتدبيره.

وتخصصهم بما خصصهم الله به، من المطاعم، والمشارب، والملابس. . وهذا لايتسع فيه حيوان، اتساع بنى آدم، لأنهم يكسبون المال خاصة دون الحيوان ، ويلبسون الثياب، ويأكلون المركبات من الأطعمة. . وغاية كل حيوان، أن يأكل لحماً نيئاً أو طعاماً غير مركب.

والصحيح الذى يعول عليه. . أن التفضيل إنما كان بالعقل الذى هو عمدة التكليف، وبه يعرف الله، ويفهم كلامه ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله.

فالناس جميعاً، على اختلاف أجناسهم، وتمايز ألوانهم وتباعد ديارهم، وأقطارهم، يرجعون إلى أب واحد، وأصل واحد.

وكثيراً ما ذكر الله سبحانه وتعالى، هذه الحقيقة، فى آيات كثيرة، من القرآن الكريم ، وبينها فى أساليب شتى، وبعبارات رائعة.

لماذا كل هذا الاهتمام؟ لا شك أنه لكى يرعى الناس هذا الاعتبار، ويعيشوا فى إخاء، وتعاون، وتعارف، وتبادل.

قال تعالى: «﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾(٢).

فقوله تعالى: ﴿الَّذى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أى فرعكم من أصل واحد، وهو نفس أبيكم آدم، وجعله تعالى إياهم صنوفا مفرعة، من أروقة واحدة. . من

---

(١) الاسراء: ٧٠.

(٢) النساء: ١.

موجبات الاحتراز، عن الإخلال بمراعاة ما بينهم، من حقوق الأخوة.. وفى الوقت نفسه.. مدعاة للتعارف، والتبادل، والتعامل.

وقوله تعالى فى الآية نفسها: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أى من نفسها وجنسها.. وذلك ليكون بينها ما يوجب التضام، فإن الجنسية علة الضم.

وقد أوضح هذا بقوله فى آية أخرى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١) وقوله تعالى فى الآيه السابقة: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ أى نشر من تلك النفس وزوجها المخلوقة منها، بطريق التوالد، والتناسل، رجالاً كثيراً ونساءً.. وترك التصريح بها للاكتفاء بالوصف المذكور.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾(٢).

فالله هو الذى أنشأ الإنسانية، من نفس واحدة، وهى الإنسان الأول، الذى تسلسل منه سائر الناس، بالتوالد.. وهو آدم عليه السلام.

وفى إنشاء جميع الناس من نفس واحدة، آيات بينات، على قدرة الله وعلمه، وحكمته، ووحدانيته.

وفى التذكير بذلك.. إيماءٌ إلى ما يجب من شكر نعمته، وإرشاد إلى ما يجب من التعاون، والتعارف، بين البشر.

وأن يكون هذا التفرق إلى شعوب وقبائل.. مدعاة إلى العمل الجاد، والتعاون الصادق.. لا إلى التعادى والتقاتل، وبث روح العداوة والبغضاء بين الناس.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٣).

---

(١) الروم: ٢١.

(٢) الأنعام: ٩٨.

(٣) الحجرات: ١٣.

كذلك أحاديث الرسول الأمين محمد صلوات الله وسلامه عليه، تجيءُ مذكرة الناس، بحقيقة رجوعهم إلى أب واحد.. تأكيداً، وتوضيحاً، لتعاليم القرآن الكريم، وتقريراً لمبادئه وآدابه.

روى الطبرانى، أن النبى صلى الله عليه وسلم، خطب الناس. بمنى فى وسط أيام التشريق، وهو على بعير.. فقال: «يأيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربى على عجمى، ولا لعجمى على عربى ولا لأسود على أحمر، ولا أحمر على أسود، إلا بالتقوى. ألاهل بلغت؟ قالوا: نعم.. قال: فليبلغ الشاهد الغائب»(١).

وعن أبى موسى الأشعرى قال: قال: رسول الله ﷺ إن الله لا ينظر إلى أحسابكم، ولا إلى أنسابكم، ولا إلى أجسامكم، ولا إلى أموالكم.. ولكن ينظر إلى قلوبكم، فمن كان له قلب صالح تحنى الله عليه، وإنما أنتم بنو آدم، وأحبكم إليه أتقاكم(٢).

فاهتمام الإسلام بالناس. فيه ترسيخ معنى الإنسانية العام، فى نفس المسلم، الذى يقرأ القرآن، ويستمع إليه، ويعمل به كما أن هذا كله.. يبين وحدة الجنس البشرى.

والقرآن الكريم.. لا يخاطب العرب فقط، ولا قومية معينة، ولا شعبًا معينًا بل يخاطب الإنسان بوجه عام.

فالإسلام الحنيف جاء ليقيم بين البشر جميعاً، رابطة الإنسانية القائمة على ارتباط البشر، بالله الخالق، عز وجل.

ومن هذا نعرف أن الإسلام، يلائم الفطرة التى فطر الله الناس عليها.. فهو يؤكد فى وضوح أن الدين الإسلامى، قد نظر نظرة فاحصة، دقيقة للإنسان فى ذاته، وتركيب كيانه النفسى والخلقى، والاجتماعى.

---

(١) التاج الجامع للأصول. الجزء الأول. ص ٦١.
(٢) التاج الجامع للأصول. الجزء الأول ص ٦١.

ونظر إلى الحياة التى يحياها هذا الإنسان فى دنياه.. معنى بالحياة والأحياء.. ورسم لهما أكمل صورة، تلائم ما يصلحهما معا.

فالحياة فى الإسلام.. تخضع لنظام دقيق، لا يسمح لجانب منها، أن ينمو على حساب جانب آخر.. وإنما تتوازن جوانب الحياة كلها، على نسق فريد، جاءَ به الإسلام دون سواه من الأديان، أو النظم الوضعية.. فهذه نظرة الإسلام للحياة.. وأما الأحياءُ من بنى البشر، فإن الإسلام نظر إليهم نظرة العارف بأسرارهم، وما يصلحهم.

واعترف الإسلام بأن للإنسان مطالبًا، لروحه، وعقله، وبدنه.. ونظمها بحيث تحقق له أفضل ألوان الحياة .

الإنسان فى داخل نفسه، ومع حاجاته الذاتية والروحية والعقلية والبدنية.

والإنسان فى أسرته.. تلك المملكة الصغيرة، التى يصلح المجتمع العالمى كله بصلاحها، وينهار ويتهاوى على ساكنيه بفسادها، أو جنوحها.

والإنسان مع المجتمع الكبير.. والإنسان مع الكون كله.. الإنسان فى كل هذه المجالات موضع اهتمام الإسلام.. ومن أجله شرع تلك النظم الخالدة الصالحة، لكل زمان ومكان، والمحققة للسعادة فى الدنيا و الآخرة.

الإنسان فى حد ذاته نفسه.. العالم المترامى، الملىء بالرغائب والحاجات التى يسعى عمره لتحقيقها.. وتلك الجوارح من سمع، وبصر. وفؤاد وأيد، وأرجل.. يسخرها الإنسان لإشباع حاجاته الروحية، والعقلية والبدنية.

والشخصية الإنسانية فى الإسلام حقيقة حية.. والأسرة الاجتماعية فى الإسلام، حقيقة حية.

والإسلام لا يهدم شيئاً من كيان الاجتماع الذى استفاده بنو الإنسان، من أطوار حياتهم الاجتماعية فى الحقب الطوال.. لأن المفهوم من سير الهداية الإلهية، كما يسردها القرآن الكريم، أن حياة النوع الإنسانى: . تاريخ متصل، يتم

بعضه بعضاً، وتنتهى إلى التعارف بين الشعوب والقبائل، فى أخوة عامة، لافضل فيها لقوم على غيرهم إلا بالعمل الصالح.. ولهذا يحرص الإسلام على كيان الاجتماع فى الشخصية الفردية، وفى الأسرة، وفى الإيمان بوحدة النوع.

لكن ما مكان الإنسان من الكون كله؟

ما مكان الإنسانية من هذه السيارة الأرضية، بين خلائقها الأحياء؟

ما مكان الإنسان بين كل جماعة من هذا النوع الواحد؟

أو هذا النوع الذى يتألف من جملة أنواع، يضمها عنوان: «الإنسان» ؟

وهى أسئلة لا جواب لها، فى غير عقيدة دينية، تجمع للإنسان صفوة عرفانه بدنياه وصفوة إيمانه بغيبها، تجمع له زبدة الثقة بعقله، وزبدة الثقة بالحياة حياته هو.. وحياة سائر الأحياء.. والأكوان.

وهذه العقيدة الدينية التى نستلهم فيها الجواب.. لا توجد اليوم لتنبذ غداً ولا توجد على الأيام للعارفين.. دون الجاهلين.. وللعاقلين دون الخاملين.. ولمن يطلبون الخير للناس.. دون من يعتقدون تسليماً ورهبة.. ولمن يصلون سعيهم إلى العلم والإيمان.. دون من يقعدون فى مواطنهم منتظرين. وقد يقعدون وهم يجهلون أنهم قاعدون، لا يعلمون ما الخبر؟ وما المنتظر؟ إن علموا أنهم منتظرون.

هذه العقيدة بنية حية.. قوامها دهور وأمم، ومعايش، وآمال ونفوس خلقت، ونفوس لم تخلق.

والمنصف لا يستطيع أن ينصح لأهل القرآن بعقيدة فى الإنسان والإنسانية أصح وأصلح من عقيدتهم التى يستوحونها من القرآن الكريم.

لأن الناس استمعوا إلى المادية التاريخية.. فقالت لهم: إن الإنسانية عملة اقتصادية فى سوق الصناعة والتجارة.. تعلو وتهبط فى طبقاتها، بمعيار العرض والطلب، وصفقات الرواج والكساد.

واستمع الناس إلى الفاشية.. فقالت لهم: إن الإنسان واحد، من عنصر سيد، وعنصر مسود.. وأن أبناءَ الإنسانية جميعاً عبيد للعنصر السيد.

والعنصر السيد قبل ذلك عبد للسيد المختار، بغير اختيار.

واستمع الناس إلى العقلية.. فقال لهم قائل منها: إن إنسانيتهم شىءٌ لا وجود له.. ووهم من أوهام الأذهان.. وأن الشىءَ الموجود حقا، هو الفرد الواحد. وبرهان وجوده حقاً.. أن يفعل ما استطاع من نفع أو أذى.

وغير جديد ما استمعوه من أهل العقائد الإلهية، عن مكان هذا الإنسان من الأرض والسماء، ومكانه من أخوته فى آدم وحواءَ.. سمعوا: أنه روح وجسد.. ودنيا وآخرة.. ينجو شطره بمقدار ما يهلك شطره.. ويصح له الوجود بمقدار ما صح له من عقبى الفناء.

وسمعوا: أنه إنسانان: إنسان صحيح مقبول.. وإنسان زائف مدخول.

صحيح مقبول كل من اجتباه مولاه على هواه. وزائف مدخول من خلقه ونفاه.

وسمعوا: أن الإنسان يولد بذنب غيره، ويموت بذنب غيره.. ويبرأ من الذنب بكفارة غيره، ويمضى بين النعمة، واللعنة، بقدر من الأقدار..

وبجانب هذا وذاك مرت الإنسانية على المادية الملحدة التى تعمل على أن تصبح الإنسانية بلا ماض، ولا تاريخ، ولا وجود. فوجدت إلحادا أعمى، أصم، يحاور ويداور ليشوه المعالم.

وبعض المذاهب المادية كالشيوعية وما يتفرع عنها من مذاهب.. لم تقف عند هذا الحد بل فلسفت الحياة فلسفة خاصة، وأرادت فى فلسفتها تحقيق آمال الإنسانية، عن طريق القضاء على الثروات والملكيات.. ففقد الإنسان الكرامة وحقه فى الحياة... وأرادت هذه الفلسفة الإشتراكية أن تسعد الإنسان عن طريق ملء بطنه فقط.. فاشترت منه الحرية رغما عنه، وأعطته مقابل ذلك خبزا، يأكله كما يأكل الحيوان وأرادت أن تزيده سعادة فى نظرها، فساوته بالآلة وأحاطته برعاية حمراءَ كالتى تستحقها الآلة، وأصبح الإنسان آلة فى «ماكينة» أو ترساً فى آلة.. وبهذا تحول الإنسان إلى حيوان.. يساق كما يساق الحيوان.

وجربت الإنسانية الرأسمالية المجردة من معانى الإنسانية.. فوجدتها أنها هى الأخرى قد فلسفت الحياة فلسفة خاصة.. لتسعد إنسانها الرأسمالى فحسب.. بل

ما كان منها إلا أن أطلقت لهذا الإنسان الرأسمالى، حريته المحجورة. وحررت غرائزه المكبوته، وألهبت مطامعه المجنونة.. وجعلت الدولة حارسة لهذه الحريات.. حتى ولو تحولت الحريات إلى انحراف فى الغريزة وإلى شذوذ فى الطبيعة وإلى عدوان على حريات الآخرين، وإلى استعمار بلاد الأبرياء، وامتصاص دماء الشعوب، ونهب خيراتها.. ونتيجة لهذه الفلسفة الرأسمالية، انتشرت أسواق النخاسة فى العواصم.. لبيع الشعوب والتآمر عليها والعدوان على أراضيها، وامتصاص خيراتها، واستنزاف مواردها.

أما الناس فى القرآن الكريم.. فهم غير ذلك كله.. فهم متدبرون، ويستمعون إلى صوت العقل كما يستمعون إلى صوت الإيمان إذا أطمأنوا إليه.

الإنسان فى عقيدة القرآن هو الخليفة المسؤول، بين جميع ما خلق الله.. يدين بعقله، فيما رأى وسمع.. ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب، مما لا تدركه الأبصار والأسماع.

والإنسانية من أسلافها إلى أعقابها أسرة واحدة، لها نسب واحد، وإله واحد، أفضلها من عمل حسناً، واتقى سيئًا.

وإننا نرى أن الإنسان فى القرآن الكريم.. ذكر بغاية الحمد، وذكر بغاية الذم، فى الآيات المتعددة، وفى الآية الواحدة.

ولايعنى ذلك.. أنه يحمد ويذم فى آن واحد، وإنما معناه أنه أهل للكمال والنقص، بما فطر عليه من استعداد لكل منهما.. فهو أهل للخير والشر، لأنه أهل للتكليف.

والإنسان مسئول عن عمله،ولا يؤخذ فرد بوزر فرد، ولا أمة بوزر أمة.

قال تعالى: ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾[1].وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[2].

---

(١) الطور : ٢١.

(٢) الأنعام: ١٦٤.

وقال تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[١].

أما مناط المسئولية فى القرآن.. فهو جامع لكل ركن من أركانها يتغلغل إليه فقه الباحثين عن حكمة التشريع الدينى أو التشريع فى الموضوع.

فالإسلام الحنيف.. ينظر إلى الإنسانية نظرة تضعه فوق مستوى الكائنات الحية جميعاً، فى هذا الكوكب الذى أقامه الله تعالى فيه. ليكون خليفة له عليه.

وقد استعمل القرآن الكريم، لفظ الإنسان في كثير من الآيات فتحدث عن خلق الإنسان: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾[٢]. ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾[٣] .﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴾[٤].

﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴾[٥]. ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[٦]. ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴿٥٤﴾ ﴾[٧]. ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق: ٦، ٧][٨]. ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾[٩]. ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ ﴾[١٠].

وكلمة الناس الدالة على الجنس البشرى، يتكرر استعمالها فى آيات متعددة.. وكثير منها ورد خطابا للبشر عموماً.. كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾[١١].. ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا

---

(١) البقرة: ١٤١.
(٢) الحجر: ٢٦.
(٣) المؤمنون: ١٢.
(٤) السجدة: ٧.
(٥) الإسراء: ١١.
(٦) إبراهيم: ٣٤.
(٧) الكهف: ٥٤.
(٨) العلق: ٦، ٧
(٩) الانفطار: ٦.
(١٠) الانشقاق: ٦.
(١١) الحجرات: ١٣.

رَبَّكُمُ﴾[١]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً﴾[٢].. ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾[٣].

وورد فى معرض الحض على تقديم الخير للناس:

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣] ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤] ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥] ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤] ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء ٥٨].

وكلمة الناس استعملت فى القرآن الكريم، بمعنى الجنس البشرى عموماً لا بمعنى المسلمين أو العرب.. بدليل قوله تعالى فى الآيات التالية مما لايمكن حمله إلا على الناس عموماً:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٤٣] ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٩] ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ [آل عمران: ١٤] ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فالقرآن الكريم لا يخاطب قومية معينة، ولا شعباً معيناً.. بل يخاطب الإنسان بوجه عام.. ويتحدث عن الأمم: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ [الرعد: ٣٠].

واستعمل القرآن كذلك كلمة البشر، للدلالة على الجنس الإنسانى الواحد.. وقد استعملت هذه الكلمة، فى أكثر من موضع، كقوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا﴾ [الحجر: ٢٨]، ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾ [الفرقان: ٥٤].

---

(١) البقرة: ٢١

(٢) البقرة: ١٦٨.

(٣) يونس: ٢٣

وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم: ٢٠].

وقوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: ١١].

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

والآية القرآنية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣] تشير بوضوح إلى أن كلمة الناس.. تشمل:

أولا: الذكور والإناث.. فهما جنس واحد. كما أشار إلى ذلك فى آيات أخرى. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [الروم: ٢١]، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

ثانياً: تشير الآية بوضوح إلى أن البشرية تتألف من مجتمعات قبلية وشعوب أو أقوام. وكلمة الناس هى التى تعبر عن الجنس العام الذى يشملهم جميعاً.

وأخيراً فإن الآية تشير إلى اتجاه تطور البشرية، أسراً وقبائل وشعوباً فى اتجاه التعارف وهو المعرفة المتبادلة من جميع الأطراف.. وهو الشرط الأساسى، لتحقيق التعاون الذى أوصى به القرآن فى قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

إن الإسلام جاءَ كما يفهم من النصوص القرآنية، ليقيم بين البشر جميعاً رابطة الإنسانية، القائمة على ارتباط البشر جميعاً بالله الخالق جلا وعلا.. فهم جميعاً عباد الله.. لا ليجعل شعبا معيناً، شعبه المختار.

والرسول الذى أمر بتبليغ الإسلام.. خواطب فى القرآن على هذا الأساس: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨] ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

ولم يرسل ليكون هاديا لقومه وحدهم، كما أُرسل موسى هدى لبنى إسرائيل، وكما أُرسل عيسى إلى خراف إسرائيل الضالة. . . إنما أُرسل ليكون هو وقومه للناس جميعاً.

﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

إن هذا الاتجاه الإنسانى. . ظاهر فى تعاليم الإسلام، وتوجيهاته، والقرآن يصرح بأن الإنسان هو خليفة الله فى الأرض.

والقرآن حين يتحدث عن الإنسان. . فإنه يتحدث عن الإنسان حديثاً يملأ الصدر بدفء الأمل، وسعة الرجاء، ويفتح عليه صفحات مشرقة للوجود، تُغرى الإنسان بالوقوف عند كل موجود.

وكيف لا. . وهو يسمع نداءَ الحق سبحانه وتعالى له بقوله: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾[١].

---

(١) النحل: ٥ ـ ١٨

وتوحى هذه الآيات بما يلى:

أولا: تعدد نعم الله، وآلائه على البشر، وأن هذه النعم وفيرة فى الأرض وفى السماءِ ، وفى البحر.

ثانيا: النظام الذى وضعه الله للعالم العلوى.. ثابت لا يختل فكل كوكب من هذه الكواكب، يجرى فى مداره، حسب نظام موضوع ، وتوقيت مخصوص.

﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(١).

ثالثاً: توحى الآيات بالأدلة الكافية.. على أن الله واحد لا شريك له ، وأنه الخالق للسموات والأرض ، وما فيهما.

فالإنسان فى الإسلام.. ذلك الذى يمتلىءُ كيانه بمشاعر العزة والسيادة والقوة، والاستفادة بكل ما فى الأرض، من قوى يسخرها لسلطانه ويقوم بها على خلافة الله فى الأرض، مستصحباً فى ذلك عقله المحرر من كل ولاءٍ لغير الحق، المطلق من كل قيد.. غير قيد البر والإحسان.

ومن وراء كل هذا: الإنسان الذى يدخل فى إطار الرسالة الإسلامية التى جاءَ بها الرسول الأمين محمد صلوات الله وسلامه عليه.. لا يستطيع إلا أن يصدق بمحمد ﷺ وبالنبيين والمرسلين الذين بعثهم الله قبل رسالة محمد لإرساءِ قواعد الإخاءِ الإنسانى..

وهذا يشكل حلقة فى وحدة الإيمان التى أكد عليها الإسلام، الدين الذى جاءَ به محمد عليه الصلاة والسلام.. وتبناها فى جانبه العقائدى وتحدث عنها القرآن الكريم.

ووحدة الإيمان هذه حقيقة تفرضها وحدة المصدر بصورة قاطعة لا تقبل الجدل أو التشكيك، ولا يغير من واقعها، وجود فواصل البعد الزمنى، بين الأنبياء الذين

(١) يس: ٤٠.

أرسلهم الله إلى عباده.. وربما يكون لعامل الزمن أثره الواضح فى اختلاف التشريعات التى يفرض فيها أن تنسجم مع المستوى الفكرى، والمعاشى.. لمن تكون لهم... ولكن الإيمان يبقى واحداً فى أساسه.

وثمة آيتان فى القرآن الكريم.. تؤكدان هذه الحقيقة.. حقيقة الإيمان، وتغير التشريعات.

قال تعالى ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ... ﴾(١). وقال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾(٢).

فالآية الأولى: تعنى وحدة الإيمان فى أسسه.

والآية الثانية: تعنى متغيرات الشريعة وما يعود إلى الأعمال.. والإيمان يعنى هنا: العقيدة ممثلة فى الأصول التى يقوم عليها الدين.. هذه الأصول تعنى:

أولا: الإيمان بالله رب العالمين، الذى لا إله إلا هو الواحد، المعبود، الذى لا شريك له، خالق كل ما فى الوجود.

ثانياً: الإيمان بالغيب: اليوم الآخر، والبعث والجزاء، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والملائكة.

ثالثاً: الإيمان بالنبيين، والمرسلين، وتصديقهم، والأخذ بتعاليمهم وإرشاداتهم، والعمل بما نزل عليهم من وحى الله.

تلك هى أصول الإيمان التى حملها كل نبى.

وقد جمعت هذه الأصول.. آيات من القرآن الكريم، فى صدر سورة البقرة قال تعالى:

---

(١) الشورى: ١٣.

(٢) المائدة: ٤٨.

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ ﴾(١).

يؤمنون بالله ، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وجنته، وناره، ولقائه. . ويؤمنون بالحياة بعد الموت ، والبعث .

ويقيمون الصلاة بفروضها، وإتمام الركوع، والسجود، والتلاوة والخشوع، والإقبال عليها.

وكثيراً ما يقرن الله تعالى الصلاة والإنفاق من الأموال. . فإن الصلاة والابتهال إليه، ودعاءه ، والتوكل عليه، والإنفاق هو من الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدى إليهم.

قال تعالى:

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾(٢).

والآية كما ترى مشتملة على خمس عشر خصلة. . وترجع إلى ثلاثة أقسام: فالخمسة الأولى منها تتعلق بالكمالات الإنسانية التى هى من قبيل صحة الاعتقاد. وآخرها قوله: ﴿ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ وافتتحها الله بالإيمان، واليوم الآخر، لأنهما إشارة إلى المبدإ والمعاد.

(١) البقرة: ١ ـ ٤.
(٢) البقرة: ١٧٧.

والستة التى بعدها.. تتعلق بالكمالات النفسية، التى هى من قبيل حسن معاشرة العباد.

وأولها: ﴿وَآتَى الْمَالَ﴾، وآخرها: ﴿ وَفِي الرِّقَابِ﴾.

والأربعة الأخيرة.. تتعلق بالكمالات الإنسانية التى هى من قبيل تهذيب النفس.. وأولها: ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ﴾ وآخرها: ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ ولعمرى من عمل بهذه الآية، فقد استكمل الإيمان، ونال أقصى مراتب الإيقان».

فالإسلام فى جانبه الإيمانى العقائدى.. أكد هذه الأسس، التى أكدها كل نبى.. ولكنه فى الجانب الذى يستتبع الشريعة.. جانب الالتزام والعمل، كان الإسلام الفصل الأخير فى تكامل التشريعات.

وهذا الطابع الشمولى الملتقى فى أسس العقيدة، والمتكامل فى التشريع هو الذى جعل من الإسلام الصيغة الوحيدة الباقية المستمرة أبد الدهر ولعل هذا هو السر الذى جعل من الإسلام كلمة تختص بالدين الذى جاءَ به رسول الإنسانية محمد عليه الصلاة والسلام..

وكلمة الإسلام فى الإطار اللفظى.. تعنى التسليم والخضوع وفى مفهوم الدين يراد منها: التسليم والخضوع لله وحده لا شريك له.

وبهذا المعنى أطلقت على كل من آمن بالله، وسلم لأمر الله.. فأتباع كل نبى، وكل من يدين لله من الأديان السماوية.. هم مسلمون بهذا المعنى.. والقرآن الكريم.. اعتبر كل من آمن بالله تعالى، والتزم بطاعة أنبيائه مسلما.. سواء كان تابعاً لإبراهيم، أو موسى، أو عيسى، أو محمد صلوات الله وسلامه عليهم.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾(١).

---

(١) البقرة: ١٣٢.

وَصَّى بهذه الملة. وهى الإسلام لله، أو يعود الضمير على الكلمة وهى قوله: « أسلمت لرب العالمين» لحرصهم عليها، ومحبتهم لها[١].

وقال تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[٣].

فلم يكن الإسلام مقتصراً على فئة دون فئة من المؤمنين.. فكل مسلم بحكم إيمانه وتسليمه لأمر الله.. هو من المؤمنين.

فالإسلام فى هذا الإطار، يتسع ليشمل كل من وضع قدمه وسار فى مسيرة الإيمان، ولكن الإسلام فى ظل رسالة محمد عليه الصلاة والسلام أصبح مقتصراً على تلك الرسالة وحدها ومختصًا بها.

والآية الكريمة التى اعتبرت الدين عند الله الإسلام: «إن الدين عند الله الإسلام» تعنى مجموعة المبادىء الإسلامية، وتعاليم الإسلام.. فالإسلام مر بمراحل كبيرة عبر أنبياء الله ورسله.. إلى أن انتهى إلى المرحلة التكاملية فى رسالة محمد عليه الصلاة والسلام التى جاءت إلى الإنسانية كلها.

إذن رسالة الإسلام.. هى الإسلام الشامل للإنسانية فى وحدة إيمانها بالله.. قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[٤].. ولهذا كان الإسلام.. يشتمل على امتداد زمانى فى الفكر

---

(١) تفسير ابن كثير . الجزء الأول ص ١٨٥ .
(٢) يوسف: ١٠١ .
(٣) آل عمران: ٥٢ .
(٤) المائدة: ٣ .

الدينى، يعرض لقضية البشرية، من نشأتها إلى غايتها.. ويشتمل على شمول موضوعى يغطى مجالات الحياة جميعها.. سياسية وفكرية واقتصادية واجتماعية وتربوية.. ويشتمل أيضاً على شمول يضم الأديان كلها ويدعوها إلى تصحيح معتقداتها والانخراط فى سلك الذين أسلموا لله، والمؤمن بنص القرآن مطالب بتصديق الأنبياء جميعاً.

قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾[1].

ولهذا كله.. كانت الدعوة الإسلامية شاملة لكل أبناء الإنسانية.. تعمل لصالح المجتمعات الإنسانية كلها.

(١) البقرة: ٢٨٥.

فضيلة الحكمة

الحكمة عند أكابر العلماءِ الأخلاقيين من القدماء أُمُّ الفضائل وملاك الشيم الإنسانية. وأصل كل فضيلة عنها تصدر وإليها تعود، وأسمى القيم وأجلُّها، وتمام العلم وكمال المعرفة، من حواها فقد حوى الخير كله.

والحكمة: الفضيلة العليا التى تنشأُ من سيطرة القوة العاقلة على القوة الشهوانية.

والحكيم هو من يفعل الخير لأنه الخير فى ذاته لا لغرض آخر، والحكمة مصدر من الإحكام، وهو الإتقان فى قول أو فعل، فالمعرفة بالقرآن الكريم، فقهه ونسخه ومحكمه، ومتشابهه، وغريبه، ومقدمه، ومؤخره، والإصابة فى القول والفعل، والعقل فى الدين، والتفكر فى أمر الله، وطاعة الله، والخشية له والفهم، والورع كل ذلك نوع من الحكمة التى هى الجنس.

وأصل الحكمة ما يُمتَنَع به من السفه، فالعلم حكمة لأنه يمتنع به، وبه يعلم الامتناع من السفه وهو كل قبيح.

وأصل مادة الحكمة موضوع لمنع يُقصد به إصلاح. . ومنه سمى «حكمة الدابة» وقيل حكمته وحكمت الدابة، منعتها بالحكمة، وأحكمتها جعلت لها حكمة.

والحكمة تكون فى اللجام، وفسرها فى القاموس بأنها ما أحاط بحنكى الفرس من اللجام، وفسرها غيره بأنها حديدة من اللجام تكون فى الفم.

والحكم بالشيءِ أن تقضى بأنه كذا أو ليس بكذا، سواءُ ألزمت ذلك غيرك أو لم تلزمه. قال النابغة الذبيانى من قصيدة يمدح فيها النعمان بن المنذر، ويعتذر إليه من وشاية به:

وأحكم كحكم فتاة الحى إذ نظرت   إلى حمام سراع وارد الثمد

وفتاة الحى قيل هى زرقاء اليمامة، ولها قصة فى حدة النظر والإصابة من بعيد، والثمد الماءُ القليل.

والحُكم أعم من الحكمة، فكل حِكمة حُكم، وليس كل حُكم حكمة فإن الحكم أن يقضى بشيٍ على شيء فيقول هو كذا أو كذا.

والحكمة العدل، والحلم والعلم، وهو حكيم أى عدل حليم، وحكمه وأحكمه أتقنه ومنعه من الفساد، وسورة محكمة غير منسوخة، الآيات المحكمات مثل قوله تعالى فى سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾[1]. . . إلى آخر السورة، أو التى أُحكمت فلا يحتاج سامعها إلى تأويلها لوضوحها كأقاصيص الأنبياءِ عليهم السلام.

والحكمة من الله سبحانه وتعالى: معرفة الأشياء وإيجادها، على غاية الإحكام والإتقان، ومن الإنسان معرفة الموجودات، وفعل الخير، وإذا وصف القرآن بالحكمة فلتضمنه الحكمة، مثل قوله تعالى فى سورة يونس: ﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾[2]. وقيل معنى الحكيم: المحكم ـ نحو قوله تعالى فى سورة هود: ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾[3]. وكلا المعنيين صحيح.

وتعاليم الإسلام تعتبر الحكمة منحة من الله يختص بها من يشاءُ من عباده فمن أصاب من فضل الله علماً غزيزاً، وتوفيقاً فى العمل، وإصابة فى الحكم فقد أصاب الحكمة والخير كله.

---

(١) الأنعام: ١٥١.

(٢) يونس: ١ .

(٣) هود: ١.

وقال سبحانه وتعالى فى سورة لقمان: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾[١]. وفى داود عليه السلام قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[٢].

وقال تعالى فى سورة البقرة: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾[٣].

والناظر فى هذه الآيات وما جرى مجراها من الآيات التى تناولت ذكر الحكمة يلحظ أنها كلها تجعل الحكمة هبة من الله، وليست باجتهاد من الإنسان فهى إيتاء من الله وتَفَضُّل منه سبحانه وذلك حق. فالإنسان باجتهاده، وقد يحصل على فضيلة من الفضائل أو أكثر. أما أن يحصل على الفضائل كلها وأن يصل إلى الكمال الإنسانى بحصوله على الحكمة فذلك أمر لا يتأتى بالاجتهاد ولايحصل إلا بتوفيق من الله فهو مصدر الحكمة، ومنه يفيضها على من يشاءُ من أنبيائه وأوليائه الذين ينصبهم مثلا عَلِيًّا يجتهد الناس فى التمثل بهم، والسير على منهاجهم. ولا يعنى هذا أن نيأس من الحصول على فضيلة الحكمة بل على الإنسانية أن تسعى فى الاقتراب منها قدر الإمكان ، ولكل منها على قدر اجتهاده.

واين مسكويه فى كتاب «تهذيب الأخلاق» يرى:

أن الحكمة فضيلة النفس الناطقة المميزة، وهى أن تعلم الموجودات كلها من حيث هى موجودة . وإن شئت فقل أن تعرف المعقولات أيها يجب أن يفعل وأيها يجب أن يُغفل.

والحكمة تقتضى من طالبيها بصراً بالأمور، وعمقاً فى الفهم، ودقة فى الإدراك، وأناة فى التفكير، وحذراً وحيطة قبل الاندفاع فى الفعل. وهذه الأمور لا تُنال بالعلم المأخوذ من المعاهد والمدارس، أو بالمعرفة المستفادة من بين دفتى كتاب. ولكن مكانها الحقيقى هو الكون المنشور فى مدرسة الحياة يتعلم الإنسان منها الحكمة والدراية والبصر بالأمور . وكم من أُناس يحملون من الإجازات

(١) لقمان: ١٢ .

(٢) ص: ٢٠ .

(٣) البقرة: ٢٥١ .

المدرسية والدرجات العلمية الشيءَ الكثير وهم لا يفقهون من أُمور الحياة إلا أقل القليل. وكم من أُناس لم يدخلوا مدرسة فى حياتهم ومع ذلك تراهم قد عركوا الحياة، وعركتهم الحياة، فتعلموا منها ما يجعلهم على قدر كبير من الفضيلة، وحظ غير قليل من الحكمة.

والشائع المتواتر على ألسنة العلماءِ يؤْخذ منه أن الحكمة هى الإِصابة فى العلم والعمل، لأن العلم الصحيح يكون صفة محكمة فى النفس حاكمة على الإِرادة، توجهها إِلى العمل. ومتى كان العمل صادراً عن العلم الصحيح كان هو العمل الصالح النافع المؤدى إِلى السعادة.

وفى المنار: «كم من محصل لصور كثيرة من المعلومات خازن لها فى دماغه ليعرضها فى أوقات معلومة لا تفيده هذه الصورة التى تسمى علماً، فى التمييز بين الحقائق والأوهام، ولا فى التمييز بين الوسوسة والإِلهام، لأنها لم تتمكن فى النفس تمكناً يجعل لها سلطاناً على الإِرادة، وإِنما هى تصورات وخيالات تغيب عند العمل وتحضر عند المراءِ والجدل».

فالعقل هو الميزان القسط الذى توزن به الخواطر والمدركات، ويُمَيَّزُ به بين أنواع التصورات والتصديقات. فمتى رجحت فيه كفة الحقائق طاشت كفة الأوهام، وسهل التمييز بين الوسوسة والإِلهام، وهذا القول يتفق مع ما روى عن ابن عباس من: «أن الحكمة هى الفقه فى القرآن» أى معرفة ما فيه من الهدى والأحكام بعللها وحكمها لأن هذا الفقه هو أجلُّ الحقائق المؤثرة فى النفس، الماحية لما يعرض لها من الوساوس حتى لا تكون مانعة من العمل الصالح.

قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[1]. فالله سبحانه وتعالى جعل الخير الكثير مع الحكمة فالخير والحكمة لا يفترقان كما لا يفترق المعلول عن علته التامة.

---

(١) البقرة: ٢٦٩.

فالحكمة هى العلم الصحيح المحرك للإرادة إلى العمل النافع الذى هو الخير.

وآلة الحكمة هى العقل السليم المستقل بالحكم فى مسائل العلم فهو لا يحكم إلا بالدليل، فمتى حكم جزم فأمضى وأبرم .

وكرر الله ذكر الحكمة فى الآية ولم يضمرها اعتناءً بها وتنبيها على شرفها وفضلها وليس كل عمل فكرى أو تصورى أو فنى أو سلوكى يصدر من الإنسان يسهم فى الحضارة الإنسانية وإنما الذى يسهمْ ذلك العمل الذى يصدر من الإنسان ممثلا لخصيصة من الخصائص الإنسانية.

فالعمل الفكرى الدقيق، والتصور الرفيع، والسلوك الرشيد، هو أساس الحضارة الإنسانية والعامل فى نموها وتقدمها.. فالإنسان الحكيم هو صاحب الحكمة وهو الذى بذل جهدا وتجلت إرادته وأصبح ذا فاعلية، وخرج عن التأثر وأضحى مؤثرًا: مؤثرا بفكره وبتصوره، وبسلوكه فى التوجيه والتعبير. وللحكمة أثر بعيد المدى فى ضبط سلوك الأفراد والمجتمعات، بها تتجنب مزالق الأقدام وتتوقى الأخطار.

وما كانت الحكمة شأن فرد إلا أصاب النجاح والفلاح، ولا كانت خلق أمة إلا وصلت إلى الحضارة الراقية من أقرب طريق. وكيف لا، والحكمة تقتضى قبل كل عمل تبصرا بالأمور من جميع النواحى، وحذرا وحيطه قبل الاندفاع فيها فتؤمن بذلك المغبة وتزكو الثمرة.. وتعاليم الحكمة لم تكن معروفة إلا قليلا فى عصر الجاهلية العربية. فلما جاءَ الإسلام الحنيف مجد الحكمة، ودعا إليها، وزخر الأدب الإسلامى بذكرها ، ولهج بها الشعراءُ والكتاب والعلماءُ والأدباءُ.

ومن حكم ابن دريد:

وأفضل قسم الله للمرءِ عقله
فليس من الخيرات شىءٌ يقاربه

فزين الفتى فى الناس صحة عقله
وإن كان محظوراً عليه مكاسبه

يعيش الفتى بالعقــل فى كــل بلدة
علــى العــقل يُجــرى علــمه وتجاربـه
ويــزريــه فــى النــاس قــلة عقــلـه
وإن كرمـــت أعــراقــه ومـنـاسبـــه
إذا أكمــل الرحـــمن للمـــرءِ عقــلــه
فقــد كمــلــت أخلاقـــــه ومآربـــه

وما أبدع قول الشاعر :

ابــدأ بنفســك فانهــها عــن غيــها
فــإذا انتهــت عنــه فأنـــت حـكيــم

وكفى الحكمة شرفا وفضلاً أن وصف الله سبحانه وتعالى ذاته العلية بها فى غير موضع من القرآن الكريم قال تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[1]. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾[2]. والحكيم ذو الحكمة. والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياءِ بأفضل العلوم.

والمجتمعات الإنسانية فى أشد الحاجة إلى الحكمة، تنشدها فتجد فيها مبتغاها، وتطلبها فتجد فيها الأمن والأمان، وتنطلق بها فتصل إلى مراقى السعادة، وتعمل بها فتحظى بكل تقدير.

وإن نظرة تقويمية لوجودنا ، ولحظة فحص وامتحان لكل مقوماتنا، ومراجعة واقعية لمفاهيمنا وسلوكنا، إن فحصا موضوعياً لكل هذا يرينا أننا بدون الحكمة سوف نضل الطريق، ونقع فى متاهات موغلة فى الظلام الجهم. والجاهلية العمياء.

---

(١) يوسف: ٨٣.
(٢) النساء: ١١.

ولعل خير الطرق لاكتساب فضيلة الحكمة والتحلى بها هو الأخذ بأفضل أساليب التربية الأخلاقية، والعمل على أن نأخذ سمت الحكماء الحقيقيين، الذين يؤثرون القناعة والاعتدال، والحق والعدل فى أعمالهم، والصدق فى أقوالهم.

وفى صحيح البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا فى اثنتين: رجل أتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها».

* * *

الفضيلة فى الإسلام

الفضيلة هيئة نفسية تصدر عنها الفضائل، وليس المراد بالفضيلة مجرد الفعل وحده، وإنما المراد الهيئة النفسية التى يصدر عنها الفعل. والفضائل تصدر عن القوى النفسية فى الإنسان. ومقياسها الاعتدال الذى هو الوسط الأخلاقى. فالقوة الناطقة إذا اعتدلت كان منها الحكمة. . وديوان الفضائل فى المجتمع الإسلامى لم يظل مقصورا على تلك الألفاظ والمصطلحات التى نقرؤها ونرويها ونسعمها ولكن روى معها حقائق من الطبع والخلق والكسب وكان أرفعها السعى لتحصيل العلوم والعمل بها.

والمتأمل فى الدراسات الإسلامية يجد أن العلماءَ المسلمين لم يقفوا عند حصائل الألفاظ والمصطلحات، بل عاشوا حياة العلم ذاتها، وبذلوا كل الاهتمام باللباب دون القشور، واشتغلوا بالجوهر دون العرض، وزكوا أنفسهم بالمحمود الذى يزداد حمداً كلما ذكا ونما.

والفضيلة التى اهتم بها المسلمون مشتقة من الفضل. والفضل ضد النقص. والفضيلة الدرجة الرفيعة فى الفضل. ومعنى الفضل الزيادة على الحاجة، أو الإحسان ابتداءً بلا علة، وفضيلة الشيء مزيته، أو وظيفته التى قصدت منه، أو كماله الخاص به، ويقال، فضيلة السيف: إحكام القطع، والفضيلة فى علم الأخلاق هى الاستعداد الدائم لسلوك طريق الخير، أو مطابقة الأفعال الإرادية للقانون الأخلاقى أو مجموع قواعد السلوك المعترف بقيمتها.

فالفضيلة تعود الإرادة تحقيق الخير واجتناب الشر، فى كل ما يصدر عنها، من فعل أو قول ، أو اعتقاد. ولذلك كانت ملكة مقدرة لكل فعل هو خير من جهة ذلك التقدير أو يظن به أنه خير، أعنى الحافظة لهذا التقدير والفاعلة له، ولهذا كانت موجدة لكل فعل يُقْصَدُ به نحو غاية ما، جليل القدر، عظيم الشأن فى حصول تلك الغاية عنه.

ومن هذا يتضح لكل مفكر ، أن الفضيلة لا تتحقق بفعل الخير مرة أو بصدور الخير عن الإرادة فى وقت دون وقت، ولكى يكون الإنسان متصفاً بالفضيلة لابد أن يكون متعودا على فعلها، وأن تصدر عنه الفضيلة صدوراً مستمراً، فلا يكفى فى وصف الإنسان بالصدق أن يصدق فى موطن ويكذب فى آخر. بل لابد أن يكون صادقاً فى المواطن كلها، ومثل هذا يقال فى كل فضيلة، أو فى الفضائل جملة.

ويرى العلماء: أن الفضيلة لا تتحقق إلا بالعلم والإرادة والثبات:

١ ـ أما العلم: فلأن العمل لا يكون فاضلا إلا إذا كان مسبوقا بالعلم بفضيلته ومن ثم يجب على المرء أن يعلم أصول المعارف والمعاملات والتأديبات كما يجب العلم بالرذائل والشرور الضارة بالإنسان حتى يتسنى له بذلك معرفة نفسه وتطهيرها من التخلى عن الرذائل قبل التحلى بالفضائل.

٢ ـ وأما الإرادة: فلا يكون الإنسان فاضلاً إلا إذا كان مريدا مختارا لما يتصف به من الفضائل. ومن هنا فالمكره والمجنون. لا توصف أعمالهما بالفضيلة، فالإرادة شرط الفضيلة بل هى أساس المسئولية والجزاء، ولذلك يقول ابن مسكويه: الخيرات هى الأمور التى تحصل للإنسان بإرادته وسعيه فى الأمور التى لها أوجد الإنسان ومن أجلها خُلقَ. والشرور هى الأمور التى تصرفه عن هذه الخيرات بإرادته وسعيه أو كسله وانصرافه.

٣ ـ وأما الثبات : فبالإضافة إلى العلم بالفضيلة والإرادة لها، لابد من الثبات عليها ودوامها لأنها بذلك تصبح عادة وسجية وتربى فى النفس الإرادة القوية نحو الفضائل والإقبال عليها والتمكن منها. ومن ثم فصدور الفضيلة من الإنسان بغير ثبات عليها لا يجعله من الفضلاء.

وبالعلم والإرادة و الثبات تتحقق الفضيلة الكاملة للإنسان فلا تنال منه الأحداث، ولا يفزع من نوائب الدهر، ولا يرضى إلا بإظهار الحكمة إلى أهلها.

ومن شرط الفضيلة أن تتم فى الحياة الاجتماعية، لأن من ترك مخالطة الناس وتفرد بالأمر دونهم، لا تحصل له الفضيلة، ولا معنى للتواضع والصدق، والكرم، والإخلاص وإنكار الذات، وغيرها من الفضائل إلا بالنسبة إلى رجل يعيش مع الناس ويشاركهم فى أحوالهم.

ولذا يقول العلماءُ: إن الفضائل تختلف باختلاف طبقات المجتمع فإذا كانت العفة فضيلة العمال، والشجاعة فضيلة الجنود، والحكمة فضيلة الحكام. فإن المجتمع الفاصل هو المجتمع العادل الذى تتحقق فيه جميع الفضائل الإنسانية فى وزن واحد من الإنسان.

ومن شروط الفضيلة أيضاً: قدرة الفاعل على التمييز بين الفضيلة والرذيلة أو بين الخير والشر. فالذى يعمل الخير، ولا يدرى أنه خير، لايقال عنه إنه فاضل، ولا يوصف فعله بأنه فضيلة، ولكى يُعد العمل فضيلة، والعامل فاضلاً، لابد أن تتجه نيته وقصده إلى الفضيلة.. والمرءُ لا يوصف بفضيلة ما لأنه فعلها مرة أو عدة مرات بل لابد أن يتعود على فعلها، وأن يستمر على التمسك بها دائما.

ولكى يوصف المرءُ بفضيلة العدل لا يكفى أن يكون عادلا مرة أو مرات بل لابد أن يكون عادلاً على الدوام.

والفضائل كثيرة ومتنوعة. فالبر، والعدل العام، والشجاعة والمروءَة والعفة والرحمة، والحلم، والسخاءُ، والحكمة، والصدق والصبر كلها فضائل وهذه الفضائل وإن كانت مظاهر لحب الخير، ومقت الشر إلا أنها مختلفة. فمنها ما هى فضائل فى ذات فقط، ومنها ما هى فضائل من جهة أنها تُفْعَلُ فى أناس آخرين.

وهذه التى تفعل فى أُناس آخرين، تكون أعظم عند قوم منها عند آخرين، وفى حال دون حال. مثال ذلك أن فضيلة الشجاعة آثر فى وقت الحرب منها فى وقت السلم.

وأما فضيلة العدل فمؤثرة فى السلم والحرب جميعا. وفضيلة السخاء والمروءَة عند المحاويج آثر منها عند غير المحاويج ـ « المحاويج أحوج وزان أكرم من الحاجة

فهو محوج وقياس جمعه بالواو والنون لأنه صفة عاقل، والناس يقولون فى الجمع محاويج مثل مقاطير ومفاليس، وبعضهم ينكره ويقول غير مسموع» وإنما تنفصل فضيلة المروءة من السخاء بالأقل والأكثر لأن فعل كليهما هو المال. لكن المروءة هى فعل أكثر من فعل السخاء. فأما البر فهو فضيلة عادلة يعطى الفاضل بها لكل امرىء ما يستحق، وذلك بقدر ما تأمر به السنة، والجور هو الخلق الذى يأخذ به المرءُ الأشياء الغريبة التى ليس له أن يأخذها. وأما الشجاعة ففضيلة يكون المرءُ بها فعالاً للأفعال الصالحة النافعة فى الجهاد وعلى حسب ما تأمر به المبادىءُ حتى يكون الفعل خادماً للتعاليم التى توجهه.

فالفضائل الشخصية هى الفضائل التى تنظم حياة الفرد، وتجعل قواه وملكاته فى حالة تعادل وتوازن. وأما الفضائل الاجتماعية فهى الفضائل التى تجعل المرء فى حالة وفاق مع غيره من الناس، ومما يلاحظ أن كلا من الفضائل الشخصية والفضائل الاجتماعية، له علاقة وثيقة بالآخر، فبدون الفضائل الشخصية لا يمكن تحقيق الخير للمجتمع، وبدون الفضائل الاجتماعية تلحق الأضرار والمفاسد بالأفراد.

ويجدر بنا ونحن نتحدث عن الفضيلة والفضائل أن نذكر أن الباحثين وصلوا إلى أن مراتب الصفات فى الجانب الخلقى ثلاث:

المرتبة الأولى:

مرتبة التعامل المألوف، الذى يجرى عليه كافة الناس، حين لايكون هناك سبب من أسباب المجاملة والمكارمة، ولا سبب من أسباب المنازعة والمخاصمة والشأن فيه أن يقع المستوى الطبيعى، فلا يعلو عنه ولا يهبط.

وان شئت بعبارة أخرى فقل: هو التعادل المحض، والتوازن الصرف. فهذا يبيعك سلعة وأنت تشتريها فلا فضل لك عليه ولا فضل له عليك، لأنك حققت مصلحتك بالأخذ وهو حقق مصلحته بالإعطاء ثم ما دمت قد أخذت منه حقك كاملاً، وأعطيته حقه كاملاً، فليس أحد منكما قد أخل بمستوى التعادل

والتوازن. . وإذا أردنا ان نصف هذه المرتبة الخلقية فى المجتمع فإننا نصفها بأنها «هيكل التعامل» تشبيها لها بالهيكل الذى يقوم البناءَ، وتأتى من بعده الإضافات والمكملات وهى لا تسمى فضيلة ولا رذيلة. ومع أنها هى الحد الاجتماعى الذى يقاس عليه التعامل، والذى هو الشأن الغالب فى أى مجتمع فإنها لا تكفى الناس ولا يستقيم عليها شأنهم.

المرتبة الثانية:

مرتبة التعامل الفاضل الذى يقوم على أساس أن يعتقد كل إنسان أن واجبه يقتضيه الفضل أى الزيادة فهو لا يقيس علاقاته مع الناس بمقدار ما يفيد منهم وما يفيدهم قياساً صارماً لا هوادة فيه، بل يبنى دائماً على أن يتفضل ويتكرم، ثم لا يعتبر تفضله وتكرمه فضلا له وكرامة. وإنما يعتبره واجباً، وبهذا يسرى فى المجتمع روح السماحة واليسر والمحبة، ويرتبط الناس برابطة الإحسان الذى هو فوق العدل، وينبعث فيهم لون من النشاط المثمر البناء.

المرتبة الثالثة:

مرتبة التعامل النازل، وأساسها الأنانية البغيضة، وأن يشعر الأفراد بأنهم فى معترك قوامه القوة والخديعة، والتحايل على استلاب ما يمكن استلابه من الآخرين، وأن يؤدى الإنسان أدنى الأموال، أو الجهود ليحصل على أقصى ما يمكنه من الميزات وأسباب التفوق. ومن نافلة القول: أن مجتمعاً تكون درجته الخلقية هى هذه الدرجة لا يمكن أن يكون مجتمعاً سعيداً.

وهذه المراتب الثلاث إنما هى منازل طبيعية، وصور واقعية عقلية معاً، لذلك لا يتبدل الحكم عليها فى زمن من الأزمان ولا يمكن أن ينقلب أفضلها فيصبح أرذلها ولا أدناها فيصبح أعلاها، والعقول تقرر ذلك فى آخر الزمان، كما تقرر فى أول الزمان.

فكيف يسوغ من هذا القائل أن يقول : ما صلح للأولين من الفضائل والمثل لا يصلح للآخرين؟ وربما سمعنا هذا كثيراً من كتاب وأدباء وعلماء ورجال فكر.

وتواجهك هذه المقولة التى لا واقع لها . كلما دعا الداعون فى المجتمعات الإسلامية إلى الأخذ بما صلح به حال الأمة الإسلامية فى أول أمرها. فينبرى هؤلاء بتلك الأقاويل المضلة.

ولعل من أشد البلايا على الأخلاق ما نراه من داءِ التقليد الذى منشؤه ضعف النفوس واستهانتها بالقيم ، والفضيلة، والدين. وهى بلايا خلقية تبتلى بها الأمم الضعيفة التى أتلف الغزو الفكرى فيها روح الصلابة والمقاومة. فهى تسرع إلى تقليد الأقوياءِ فى رذائلهم، دون أن تلتمس الطريق إلى معرفة فضائلهم. ولو تمسك الناس بعرى الأخلاق وعرفوا لأنفسهم قيمتها لكانوا بنجوة من هذا السقوط المزرى.

ونحن نحمد الله عز وجل فقد بقى للأمة الإسلامية على الأبد - مع تباعد أقطارها واختلاف أحوالها، وتفرق آمالها - ديوان من الفضائل السامية، وهذا الديوان ثابت القاعدة، شاهق البناءِ، وهو الذى لم يزل يشدها إلى طباعها من الاستعداد والتأهب.

فقد تفتحت فى ظل الإسلام الأخلاق فتسامت بفضائل النفس، وعائشة رضى الله عنها تنبه إلى ذلك فى إجابتها حين سئلت عن خلق النبى ﷺ كيف كان؟

فقالت: «كان خلقه القرآن». وهذا يمدنا بعطاءِ خلق النفس الناطقة التى يمتاز بها القرآن لأنه حكم وتنظيم، ورأى وحكمة، ومنهاج وتدبير.

وإذا لم تُرسَمْ لهذه النفس الإنسانية فضائلها المميزة، فإن الإنسان يستوى عند الغضب بالنمر الجائع، وعند الزهد بالسبع المريض، وما أجدرنا أن نتمسك بالفضائل التى دعا إليها الإسلام، ونتخلق بأخلاق القرآن الكريم، ويكون سلوكنا مثلا يحتذى فى عالم الفضائل حتى تتربى النفوس وتزكو، ويرتفع شأن الفرد والجماعة والأمة ، وتقوى عرى التآخى والتعاون بين بنى الإنسان.

فضيلة الصدق

إن الإسلام فيما أوصى من تعاليم، وفيما جاء به من توجيهات استهدف إنسانية الإنسان ليصل بالإنسان إلى الحياة الإنسانية، ويرتفع بمستواها. والإسلام منهج متكامل رفيع ورائد فى قيادة البشر وهدايتهم، ومنحهم غاية السعادة فى النفس والمجتمع والدين والدنيا والآخرة، وذلك بفضل ما جاء به الإسلام من جلال الوسيلة وكفاية الفطرة، والوفاء بالغاية.

ومن خير صور العطاء التى أهداها الإسلام ومنحها للبشر ما جاءهم به من كريم الأخلاق وباهر السجايا، ما يمكن أن يعتبر منهجاً أصيلاً من حيث الاستيعاب لمختلف أنماط السلوك البشرى والشمولة لحياة الناس، ومن حيث الاستغراق لكل أغوار النفس الإنسانية وأعماقها وشتى الخواطر الواردة عليها.

والنتيجة التى تترتب على ترك الإنسان من غير توجيه، ومن غير تدخل من الإسلام هى فقدان الإرادة، والشخصية الإنسانية، فُقدان المقاومة والمغالبة، وفقدان التمييز والاختيار، ثم الخصومة والضياع، ومن هنا كانت رسالة الإسلام طريق يوصل الإنسان إلى أن يكون ذا قوة واستطاعة، وذا ارتباط بالمجتمع، كانت رسالة لإيقاظ الوعى بالذات والوعى بالمجتمع.

والصدق فى طليعة الأخلاق التى جاءَ بها الإسلام ليكون الإنسان صاحب وجدان سليم وإرادة واستطاعة. والصدق أصل أصيل من أُصول الأخلاق، وخلة من أهم الخلال.

والصدق مطابقة الخبر للمخبر عنه وللضمير، والكذب بخلافه. وهو من أهم الفضائل التى تقوم عليها المجتمعات. بل هو ضرورة للاجتماع الإنسانى، ولولاه ما قامت شريعة، ولا استنارت سبل الهداية، ولا قام صرح الحضارة. ولا خلدت العلوم والمعارف، ولفسد الاجتماع الإنسانى من أساسه.

ولقد بلغ من خطورة الصدق وجلال شأنه أن اتصف به الحق تبارك وتعالى فليس فى الوجود كله، من هو أصدق من الله تعالى، وَعْداً، ولا حديثا ولا قولا، ولا أدل على ذلك من القرآن الكريم الذى أوحى به إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ إذ هو آية الآيات على صدق الله عز وجل فى كل كلمة، ولفظه، ومعانيه، وموضوعاته، وأساليبه، وأهدافه، وغاياته، وسائر مجالاته، وشتى شئون الحياة التى جاءَ يطلبها ويعالجها.

ولقد برهنت على صدق القرآن الكريم مجريات الأحداث ومسيرة التاريخ فى الأفراد والأمم والشعوب والجماعات والمجتمعات.

وليس هناك من شىءٍ أنفع فى تربيه البشر وإصلاح الشعوب وتقويم الفطر من الصدق، والقيادة الصالحة التى يسير الناس على نهجها. وإذا كان هذا أمراً لازماً لهؤلاءِ وهم يقودون البشر أو يصلحون الشعوب، فإنه يصير أمراً لا غنى عنه وضرورياً لا انفكاك منه بالنسبة للأنبياء والمرسلين الذين حملهم الله أمانة الدين وريادة الناس وإصلاحهم فى كل جوانب حياتهم الفطرية، والنفسية، والخلقية ، والسلوكية، والاجتماعية، والسياسية والاقتصادية.

وليس هناك من خلة تسبق خلة الصدق، إذ الصدق أبرز الفضائل وأساسها بل وألزمها للشخصية، ومنزلة الصدق من أعظم المنازل وهو الطريق الأقوم وروح الأعمال، والحامل على اقتحام الأهوال.

ولقد كانت فضيلة الصدق منذ القدم خلق الأنبياء، والحكماءِ، وكان أول جهر النبى محمد ﷺ بالدعوة معتمداً على الصدق الذى عرف به بين قومه. إذ قال لهم: أرأيتم إن أخبرتكم أن خلف هذا الوادى خيلا تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقى؟ فقالوا: نعم ما جربنا عليك كذباً. وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يؤثرون الصدق مهما كان وراءَه من الألم. والصدق مطابقة القول: «الضمير والمخبر عنه معاً» والصدِّيق الرجل الكثير الصدق، وقيل: الصادق من لم يصدر منه

الكذب أصلاً، وقيل من لا يتأتى منه الكذب لتعوده الصدق . والصادق الاسم اللازم من الصدق وهو من صدق فى أقواله.

جاءَ فى كتاب بصائر ذوى التمييز للفيروزأبادى أن الشيخ عبد الله الأنصارى قال: الصدق اسم لحقيقة الشيءِ حصولاً ووجوداً والصدق هو حصول الشيءِ وتمامه وكمال قوته واجتماع أجزائه كما يقال عزيمة صادقة إذا كانت قوية تامة وكذلك محبة صادقة وإرادة صادقة وكذلك حلاوة صادقة إذا كانت قوية تامة ثابتة الحقيقة لم ينقص منها شيءٌ. ومن هذا أيضاً صدق الخبر لأنه وجد المخبر به بتمام حقيقته فى ذهن السامع.

وإذا كان الصدق هو مطابقة الخبر للواقع والمظهر للمخبر ، والشكل للجوهر، فإنه لم يأت منهج يدعو إلى الصدق بصدق كما جاءِ الإسلام يدعو إليه بحيث يأخذ به المؤمنون أنفسهم، يتعايشون فيما بينهم على هداه بالكلمة السديدة، والقولة الصادقة، والفعل القويم. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴿٧١﴾﴾[1].

فالإسلام يهتف بالصدق ويأمر به، ويدعو إليه كفضيلة كبرى من أوليات الفضائل التى لا تصلح حياة البشر، ولا تستقر إلا بها، ولا ينعمون إلا فى رحاب الأخذ بها. والتطبيق لها. وللصدق أنواع ثلاثة:

١ ـ صدق المرءِ مع نفسه. وذلك بأن يجنبها مزالق العيش فى الأوهام والخيالات وأحلام اليقظة، والأمانى الكاذبة، وأن يعيش فى الواقع ويواجهه بشجاعة وثبات.

٢ ـ صدق المرء مع ربه، وذلك بأن يعرف لله حقه فيتقيه حق التقوى ويعبده حق العبادة، وينضوى فى سلك طاعته قدر الاستطاعة.

---

(١) الأحزاب: ٧٠، ٧١.

٣ ـ صدق المرء مع الناس. وذلك بأن يقرر ما يعتقد أنه الحق فى قوله وفعله وصمته.

والصدق أساس لفضائل كثيرة لأن الصادق لابد أن يكون شجاعًا، وأمينًا وحافظًا للعهود، وعادلاً فى أحكامه، إلى غير ذلك من فضائل كثيرة تحتويها فضيلة الصدق وتشتمل عليها.

وهناك الصدق فى الأقوال، والصدق فى الأفعال، والصدق فى الغايات. والمؤمن الصادق هو المتصف بالصدق في هذه النواحى كلها. فالدعوة إلى الصدق وإلى التمسك به دعوة تجد بين يديها المثل الواقع للخير العظيم الذى يناله الصادقون بصدقهم، وإن احتمل الصادقون فى سبيل كلمة الحق شيئًا من الأذى والضر فى أول الأمر فإن العاقبة دائمًا لهم، وهى عاقبة تهئُ لصاحبها الفوز والفلاح. والحق أن أى مجتمع من المجتمعات لا تصلح له حياة ولا يستقر له وضع إلا إذا أقام حياته على الصدق، والتزم به، فغدا سَديدًا فى عمله مصيبًا فى قوله، سويًا فى تفكيره، مستقيمًا فى سلوكه، صادقًا مع ربه، ومع نفسه، ومع غيره من الأمم والمجتمعات.

وهذا من غير شك إذا انطبعت عليه أخلاق الأمة وحرصت عليه فإنه يقودها إلى مقام البر، كلمة الحق الجامعة لأطراف الخير وفنونه فى النفس والفرد والمجتمع فى الدين والدنيا، قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) ﴾[(١)].

فأولئك: هم الذين جعلوا بينهم وبين سخط الله وقاية بالبعد عن المعاصى التى توجب خذلان الله فى الدنيا وعذابه فى الآخرة، وأولئك هم الذين صدقوا

(١) البقرة: ١٧٧.

فى إيمانهم لأنهم حققوا الإيمان القلبى بالأقوال والأفعال فلم تغيرهم الأحوال ولم تزلزلهم الأهوال، فالصدق دليل الخير والهادى إليه فى كل آفاق البر، ومجالات الحق، وميادين الدعوة إليه. والصديقون هم أبرز العلامات فى كل أفق من آفاق الحياة، الأمر الذى يبلغ بهم وبالحياة درجة الطمأنينة والثقة واليقين. وإن مجتمعًا يشيع فيه الصدق فى الأقوال والأفعال لابد وأن يرقى ذُرا المجد، ويتبوأ المكانة الرفيعة. وما أحوج المسلمين أن يأخذوا أنفسهم بفضائل الإسلام وأن يعيشوا بها واقعهم ليسعدوا بها فى الحاضر والمستقبل. وليس هناك ما هو أدخل فى هذا المجال من الصدق وما يشيع فى المسلمين من أنماطه وصوره ومظاهره، وبقدر ما يكون المسلمون فى ذلك قريبين من الحق. مستقيمين على النهج بقدر ما يكونون جادين آمنين مطمئنين.

والصدق يعتبر من أهم المظاهر والأدلة على وجود الإيمان وأصالته ومن ثم تلمس له فى حياة المؤمنين ثقلا ووزناً ونتيجة وفاعلية تتوقف عليها حياة الناس، وتتحدد على ضوئها أقدارهم من الإيمان ومراكزهم فى الأمة. قال تعالى فى سورة الحجرات: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾(١). فالمؤمنون هم الذين آمنوا بالله ورسوله فنزل هذا الإيمان فى قلوبهم منزلة اليقين لا يزحزحه أى عارض من عوارض الحياة ولا يغير وجهه فى قلوبهم ما يلقاه على طريق الحياة. وأولئك هم المؤمنون حقاً الذين صدق فعلهم قولهم.

والصدق فضلا عما يحتوى فى رحابه كفضيلة كبرى من عوامل الالتزام وخلال الخير وخلائق البر، وكلمة الحق، يترك فى وجدان الآخذين به انطباعات يستشعرون بها راحتهم ويضع على أخلاق الموالين له بصمات حيوية، ويشع على سلوك العاكفين عليه انعكاسات مشرقة. عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم

---

(١) الحجرات: ١٥.

لسانه». ولقد كان من خير ما تعلمه الرسول الأمين محمد صلوات الله وسلامه عليه من ربه هتاف يدعو به إلى الله تعالى أن يجعل باعثه ومقصده الصدق فى كل شأن من شئونه، ويختم به كل عمل من أعماله. وقد أمر الله سبحانه وتعالى رسوله أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق. قال تعالى فى سورة الإسراء: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾(١). وأخبر عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه سأله أن يجعل له لسان صدق فى الآخرين وبشر عباده أن لهم قدم صدق ومقعد صدق فقال ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾. وقال:(٢)﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾(٣).

فهذه خمسة أشياء، مدخل الصدق، ومخرج الصدق، ولسان صدق، ومقعد صدق، وقدم الصدق، وحقيقة الصدق فى هذه الأشياء هو الحق الثابت المتصل بالله الموصل إلى الله، وهو ما كان به وله من الأعمال والأقوال، فليس هناك كالصدق فضيلة جامعة يتألق فى ظلالها البر المحيط بالعقيدة والعمل والدين والحياة والأخلاق والسلوك والمجتمعات وكل ما يتصل بنهضة الأمة وتكوينها ومقوماتها وإعدادها، والصدق بهذه المثابة من النفس والإيمان والأخلاق وبهذا التأثير الحيوى على المشاعر والسلوك يعتبر فى طليعة الأمور التى تظل صاحبها بحسن نفعها يوم القيامة فضلاً عما يعطاه الصادقون من رفيع المنازل والدرجات. قال تعالى فى سورة المائدة :﴿هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(٤).

---

(١) الإسراء: ٨٠.

(٢) يونس: ٢.

(٣) القمر: ٥٤، ٥٥.

(٤) المائدة: ١١٩.

وفى كتاب إحياء علوم الدين للغزالى: قال بعضهم: «أجمع الفقهاءُ والعلماءُ على ثلاث خصال أنها إذا صحت ففيها النجاة. ولا يتم بعضها إلا ببعض: الإسلام الخالص عن البدعة والهوى، والصدق لله فى الأعمال ، وطيب المطعم».

وإذا كان للصدق فى الإسلام كل هذه الآثار والنتائج فى الدنيا والآخرة. فما أحوج الأمة الإسلامية أن تأخذ نفسها به فى كل عمل وقول وخلق وسلوك. لتتمكن من جمع الأمة الإسلامية على كلمة الحق، ولنعيد فى ثباتٍ وقوةٍ المجدَ الحضاريَ للمسلمين.

وأىٌّ أمة لا تصلح لها حياة، ولا يستقر لها وضع إلا إذا أخذت نفسها بالصدق، والتزمت به فغدت سديدة فى عملها، ومصيبة فى قولها. سوية فى تفكيرها، مستقيمة فى سلوكها مع ربها ومع نفسها ومع غيرها.

والصدق كفضيلة كبرى من عوامل الالتزام، ومطية البر، يترك فى وجدان الآخذين به انطباعات يستشعرون بها راحتهم وهدوءهم، ويضع عل أخلاق الموالين له علامات مضيئة، يجدون بها ثباتهم، ويشع على سلوك المؤمنين انعكاسات مشرقة يلمسون بها فى حياتهم من معالم الاستقرار والطمأنينة ما يؤهلهم إلى كل خير، ويهيئهم إلى كل نجاح.

* * *

فضيلة الوفاء

الإنسان فى التصور الإسلامى قمة الكائنات الحية التى تعيش على وجه البسيطة وأفضلها وأكرمها لما أودعه الله فيه من مزايا، وميزه من صفات، والإسلام يريد أن يعيش الإنسان فى جو الاطمئنان، والاستمتاع بالحياة الإنسانية استمتاعاً يرفع الإنسانية، فوق مستوى الاحتكاك والصراع والشك، وأن المؤمن فى نظر الإسلام هو الحسن والمحسن هو صاحب الوجدان الرفيع، وهو صاحب الإنسانية فى سلوكه مع نفسه ومع غيره.

قال الله تعالى فى سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾[١]. فالله سبحانه وتعالى أوجد الإنسانية من نفس واحدة وأنشأ من هذه النفس زوجها، ومنهما نشر فى الوجود رجالاً كثيراً ونساءً فالإنسانية تنتهى إلى تلك النفس الواحدة.

وقال تعالى فى سورة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[٢]. خلق الله الناس متساوين من أصل واحد هو آدم وحواء وصيرهم بالتكاثر جموعاً عظيمة وقبائل متعددة ليتم التعاون والتعارف وإن تباعدت ديارهم وأوطانهم وتباينت عاداتهم واختلفت لغاتهم وأجناسهم.

وقال تعالى فى سورة الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[٣].

---

(١) النساء: ١.

(٢) الحجرات: ١٣.

(٣) الروم: ٢٢.

وللناس مع بعضهم روابط وثيقة،وصلات متينة، ومعاملات لاغنى لهم عنها وليس بميسور لأى إنسان كائناً ما كان أن يعيش منعزلا، ولو كان شجاعاً هماماً وبطلا صنديدا، والطبيعة البشرية تحتم على الإنسان أن يندمج بالناس ويختلط بهم، ويستعين بذوى الخبرة منهم، وأن يسترشد بنصح الناصحين، وتوجيه النابهين.

وإذا كان من الضرورة الإنسانية فى الإسلام أن لا حياة للأجسام إلا بالأرواح، فكذلك الأعمال على اختلاف أنواعها لا حياة لها إلا بالثقة المتبادلة التى يُجْتَنَى من ورائها الاطمئنان والنجاح. فبالثقة تنتظم الأُمور، وتنجز الشئون، وتستقيم الأعمال، وتؤدى المصالح على أحسن حال. والثقة لا تحقق إلا إذا أدى كل إنسان ما عُهِد إليه وألزم به نفسه. يقول القائل:

إذا قلت فى شىءٍ نعم فـأتمه　　　فـإن نعم دين على الحر واجب
وإلا فقل لا تسترح وتُرِح بها　　　لئلا يقول الناس إنك كاذب

فبالثقة وحدها يسعد الناس، ويصلون إلى الفوز والفلاح والتعاون المثمر، وإذا انعدمت الثقة ذهب الاطمئنان وأصبح كل إنسان يخاف الآخر ، ولا يطمئن إليه فى أمر من الأُمور، ولن تكون الثقة إلا عن أمانة ووفاء. فليس من الإيمان أن يُؤْتمن الإنسان على مال فيجحده، أو على عرض فيهتكه، أو على سر فيذيعه، أو على عمل فيهمله، أو على نصرة صديق فيخذله. قال تعالى فى سورة الإسراء: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٤]. وهل الوفاءُ إلا إلزام النفس بأمر الغير أياً كان، وتوفية الإنسان ذلك الأمر إلى مستحقه، على رضا ورغبة وطمأنينة؟؟ فالصادق فى وعده، والوفى بعهده، والأمين على ما ائتمن عليه. مُنَعَّمٌ فى أهله، معزز فى قومه، محبب إلى الناس إن قال قبل قوله، وإن طلب أمراً أُجيب إلى طلبه.

فسارِع الوفاءَ للناس تحظى عندهم　　　بجميل ذكر لا تنال مطالبه

والعرب قبل الإسلام كانوا أحرص الناس على فضيلة الوفاءِ، ولقد بلغ من إكبارهم لتلك الفضيلة أن أقاموا لها مُثلا «بضم الميم جمع مثال» ومما يروى أن السموءل بن عادياء طالبه خصوم امرىء القيس أن يسلم إليهم سلاحه وودائعه أو يضربوا عنق ابنه. وكان السموءل قد امتنع منهم بحصنه وكانوا قد ظفروا بابنه خارج الحصن. فأبى وفاءُ السموءل إلا أن يرى عنق ابنه تضرب ورأسه تطيح ثمنًا للوفاءِ بالعهد وفى ذلك يقول:

وفيــت بأدرع الكنــدى إنــى ... إذا مــا ذم قـــوم وفــيـت

بنى لى عاديًا حصنًا حصـينًا ... وبئـرًا كلـما شئـت استقـيت

وأوصـــى عاديًـا يـومًا بـــألا ... تهدم يـا ســموءل مـا بنيـت

ولهذا المظهر النبيل من الوفاءِ بقى المثل المشهور (أوفى من السموءل) ومن طريف ما جاءَ فى باب الوفاءِ أن الملك النعمان بن المنذر كان له يومان يوم بؤس لا يظفر فيه بأحد إلا قتله. ويوم نعيم لا يصادف فيه أحداً إلا أنعم عليه. فظفر يوم بؤس برجل أخذ بعيدا عن ديار قبيله. فلما قدم للقتل طلب مهلة ثلاثة أيام يذهب فيها ليرى أهله ويرجع ليقتل.

فطلب الملك منه كفيلاً بذلك فنظر الرجل إلى وجوه الحاشية لعله يجد ذا مروءة يكفله. وبعد لأى وقع اختياره على (شريك) فخجل شريك وكفل الرجل على أنه إذا غاب عن الموعد تقدم هو ليقتل بدله. وذهب الرجل وغاب ثلاثة أيام. وجاءَت ساعة الموعد وتقدم (شريك) للقتل وأسف القوم على (شريك) أن تكون هكذا خاتمته، وجعلوا يتطلعوا إلى الطرق من كل ناحية وإذا بشخص يلوح من بعيد تحت الغبار مقبلا فى أشد ساعة عرفت، فأخروا قتل (شريك) حتى يتجلى خبره، وبعد قليل تبين أن الرجل قد حضر وفاءً لموعده. فعجب الناس لهذا الوفاءِ وكأنما أُخذوا بغاشية. ومن بينهم الملك الذى كان عجبه بقدوم الرجل أشد من إعجابه بإقدام شريك على كفالته.

فسأل (شريك) لم كفلته؟

فقال: حذر أن يقال ذهبت المروءة من الناس.

وسأل الرجل لم أقدم على القتل بالحضور؟

فقال: حذر أن يقال ذهب الوفاء من الناس.

فقال الملك: وأنا عفوت عنكما لئلا يقال ذهب العدل من الناس.

ومن ذلك اليوم أبطل الملك تلك العادة الظالمة.

ومما يدل على مدى حب العرب لفضيلة الوفاء أن (لبيد بن ربيعة) أحد أصحاب المعلقات. بل صاحب أجود المعلقات على الإطلاق وأحد المخضرمين والمعمرين الذين أدركوا الإسلام على كمال وصلاح وعفة ومروءة لما أحس بدنو أجله لم يختر لتأبينه إلا بيتاً واحداً جامعاً لأشرف ضروب الوفاء.

إذ يقول :

تمنى ابنتـــاى أن يعيش أبوهمـا ... وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر؟
فإن حان يوما أن يموت أبوكما ... فلا تخمشا وجها ولاتحلقا شعراً
وقولا هو المرء الذى لا حليفه ... أضاع ولا خان الصديق ولا غدر
إلى سنة ثم الســلام عليكما ... ومن يبك حولا كاملاً فقد اعتذر

ألا ما أبدع ما اختاره لبيد لوصفه (هو المرءُ الذى لا حليفه أضاع ولا خان الصديق ولا غدر) أليس فى ذلك أنبل وفاء؟

وإذا كان العرب قد اهتموا بفضيلة الوفاء وأقاموا لها مُثلا فكذلك اتخذوا مثلا لخلف الوعد جاءت من الواقع المر الذى يعيشه بعض الناس. وأظهر تلك المثل وأشهرها (عرقوب) واسمه : صخر بن معد بن أسد من العمالقة وأتاه سائل . فقال : إذا أطلع النخل. فلما أطلع قال: إذا أبلح. فلما أبلح قال : إذا أزهى. فلما أزهى قال : إذا أرطب. فلما أرطب قال : إذا أتمر . فلما أتمر ، جذه ليلا ولم يعطه. فقال فيه الشاعر :ـ

وعدت وكان الخلف منك سجية ... مواعيد عرقوب أخاه بيثرب

وما أبدع قول كعب بن زهير:

ولا تمسك بالوعد الذى وعدت وإلا كما تمسك الماءَ الغرابيل

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا وما مواعيدها إلا الأباطيل

والوفاءُ بالوعد خلق كريم ينشأ عن الصبر والشجاعة والكرم ومن لم يظفر بتلك الخلال الطيبة لم يكن أهلاً للوفاء الذى كثيراً ما يتطلب التضحية وبذل النفس والنفيس، والغزالى رحمه الله يجعل الوفاءَ بالوعد ضربا من الصدق. وهو يقسم الصدق إلى ضروب. ويقول الصدق الرابع: الوفاءُ بالعزم، فإن النفس قد تسخو بالعزم فى الحال إذ لا مشقة فى الوعد والعزم ولا مؤْنة فيه. فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن انحلت العزيمة لغلبة الشهوات ولم يتحقق الوفاءُ بالعزم. وهذا يضاد الصدق فيه ولذلك قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾[1]. وقد روى عن أنس أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرًا مع رسول الله ﷺ فشق ذلك على قلبه وقال: أول مشهد مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع. فشهد أحداً فى العام القادم فاستقبله سعد بن معاذ. فقال: يا أبا عمر إلى أين؟ فقال: واهاً لريح الجنة. إنى أجد ريحها دون أحد، فقاتل حتى قُتل فوجد فى جسده بضع وثمانون ما بين ضربة ورمية وطعنة. فقالت أُخته: ما عرفت أخى إلا ببنانه.

فنزلت هذه الآية: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾[2].

والباحث يرى أن الغزالى على حق فى عد الوفاءِ بالوعد من الصدق لأن الصدق يوجد كلما وجد الوفاءُ بالوعد.

وقد كان رسول الله ﷺ مثلا عالياً فى الوفاءِ حتى قبل البعثة. فعن عبد الله ابن الحمساء رضى الله عنه قال: بايعت النبى ﷺ ببيع قبل أن يُبعث فبقيت له بقية ووعدته أن آتيه فى مكان فنسيت ثم تذكرت ذلك بعد ثلاث فجئت فإذا هو فى مكانه، فقال : يا فتى لقد شققت على أنا هنا منذ ثلاث أنتظرك.

(١، ٢) الأحزاب: ٢٣.

والوفاءُ بالوعد فضيلة تصلح لأن يمدح بها الأنبياءُ كما قال الله تعالى فى سورة مريم: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾(١). والأمر فى (واذكر) للرسول محمد ﷺ أى اتل أيها الرسول على الناس ما فى القرآن من قصة إسماعيل أنه كان يصدق فى وعده وقد وعد أباه بالصبر على ذبحه له، ووفى بوعده ففداه الله وشرفه بالرسالة والنبوة.

والوفاء بالوعد قوام الأمم وملاكُها، وعليه مدار نظامها وحياتها، وهو عماد الرقى والحضارة قال تعالى فى سورة البقرة ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾(٢). والموفون بعهدهم هم الذين إذا وعدوا أنجزوا وإذا نذروا وفوا، وإذا حلفوا بروا فى أيمانهم، وإذا قالوا صدقوا فى قولهم، وإذا ائتمنوا أدوا الأمانة. وقال سبحانه وتعالى فى سورة المؤمنون: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾(٣). وهم محافظون على كل ما ائتمنوا عليه من مال أو عمل، وعلى كل عهد بينهم وبين الله، أو بينهم وبين الناس فلا يخفون الأمانات ولا ينقضون العهود.

وإن من الوفاء الاحتفاظ بالعهد للغير ولو بعد وفاته. فقد روى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أن صديقة لخديجة دخلت على النبى ﷺ بعد وفاتها، فهش لها وأحسن السؤال عنها فلما خرجت قال: (إنها كانت تأتينا أيام خديجة وإن حسن العهد من الإيمان).

ولقد كان المسلمون أحرص الناس على التمسك بفضيلة الوفاء ومراعاة حدوده والالتزام بها فى مختلف الظروف وشتى المناسبات، والوفاء شُعبه من شعب الإيمان، وخلة من أجمل الخلال، وخصلة من خصال الخير، وفضيلة من فضائل البر تكشف عن نبل فاعلها.

وسحائب الرضوان الإلهى وصور الهبات والعطايا يخلعها الله سبحانه وتعالى على المؤمنين، جزاءً لهم وتكريماً، حيث يتبوؤن بها منازل الكرامة ويتربعون على عروش المجد والعزة.

---

(١) مريم: ٥٤.

(٢) البقرة: ١٧٧.

(٣) المؤمنون: ٨.

فضيلة العفو

لقد كانت العقيدة الإسلامية فى حياة المسلمين، هى النافذة التى يطلون منها على العوالم الحية. كما كانت العقيدة ذاتها هى المنظار الذى ترى بواسطته كافة الحقائق.

والإسلام دين يستهدف كمال النفس، وجمال الذات، وسمو الوسيلة وجلال الغاية. والمنهج الحق الذى يؤتى ثماره ويعطى نتائجه لابد أن تتوفر له عناصر رئيسية لا غنى عنها من التخطيط والمرونة والتدرج، ثم الدعوة إليه والترغيب فيه، والحث عليه، ووجود القدوة التى تطبقه وتتحلى به، وتضرب أكمل الأمثال فى توخيه، وتعطى أمثل النتائج فى اعتناقه والحرص عليه.

والإسلام الحقيقى اشتمل على هذا المنهج الحق بكل شعبه وعناصره ومقوماته ووسائله. وتبدو هذه السمات وضيئة ظاهرة، وجَلِيَّة واضحة، فى كل جانب من جوانبه، وزاوية من زواياه، فى عقيدته وشريعته وفى كل أحكامه وأخلاقه ونظامه . . لأن الإسلام نظام للحياة الإنسانية، الفاضلة المطمئنة المستقرة. نظام لحياة الفرد والمجتمع معاً، أساسه النظرة إلى الإنسان على أنه طبيعة تشتهى ولكن لها قيادة. وتوجيه الإسلام يقوم على تنبيه إرادة الفرد ليأخذ زمام الأمر بيده، ويقوم على تنمية الوعى بالمجتمع، وعلى صيانة هذا المجتمع من الانحلال.

والعفو فى الإسلام يبرز إلى حد كبير سمات المنهج الإسلامى فى قيادة البشرية وتوجيههم، وضبط سلوكهم، وربطهم بالمثل العليا، والصلات الرفيعة، والخلق الرشيد. . والراغب الأصفهانى فى مفرداته أدار مادة (عفو) على معنى القصد فى تكلف لا يسهل الاطمئنان إليه، مع أن الحسى فى هذه المادة: العفو. والعفا: الأرض الغفل التى لم توطأ ولا أثر لأحد فيها بملك. وأرض عافية: لم يرع نبتها. والماءُ العافى: الذى لم يطأه شيءٌ يكدره، ومن هذه المعانى الحسية

الموحدة، ومن أشباه لها فى الحيوان وغيره، تقال معان مادية واضحة القرب، مثل: عفا النبت والشعر وغيره: كثر وطال . وعفا القوم كثروا، ومن هذا العافية بمعنى السلامة، كما يقال العفو من المال: ما طاب وكثر وما فضل ولم يشق على صاحبه. والعفو من أخلاق الناس: السهل الميسر، والعفو ما أتى بغير مسألة، وأعفى إذا أنفق العفو من ماله. وعفا كدعا عفواً : تجاوز عن الذنب، وترك العقاب عليه، فهو عاف وعفو، والعفو من صفات الله تعالى كما أنه بملحظ آخر فى الأرض الغفل يقال عفت الديار وعفتها الريح. أى خلت ودرست. وقد ورد فى القرآن الكريم العفو من المال والخلق، والعفو من التجاوز وترك العقاب قال تعالى :﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]. ولم يقل فاعفوا واصفحوا عنهم لإرادة العموم أى عاملوا جميع الناس بالصفح والعفو فإن هذا هو اللائق بشأن المؤمنين المتقين ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[2]. . والعفو ترك العقاب على الذنب، والصفح الاعراض عن المذنب بصفحة الوجه، فيشمل ترك العقاب وترك اللوم والتثريب.

يقول الأستاذ الإمام فى المنار: وفى أمره تعالى لهم بالعفو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قلتهم هم أصحاب القدرة والشوكة، لأن الصفح إنما يطلب من القادر على خلافه كأنه يقول: لا يغرنكم أيها المؤمنون كثرة أهل الكتاب مع باطلهم فإنكم على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق، فعاملوهم معاملة القوى العادل للقوى الجاهل.

وقال تعالى فى سورة الأعراف :﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[3]. ويرى العلماءُ أن هذه الآية تضمنت قواعد الشريعة فى المأمورات والمنهيات. فقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين، ودخل فى قوله ﴿وَأْمُرْ

(١) البقره: ١٠٩ .

(٢) الفرقان: ٦٣ .

(٣) الأعراف: ١١٩ .

بِالْعُرْفِ﴾ صلة الأرحام، وتقوى الله فى الحلال والحرام، وغض الأبصار والاستعداد لدار القرار، وفى قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الحض على التخلق يالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازلة السفهاءً ومساواة الجهلة الأغبياءِ، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة. قال جابر بن سليم أبو جرى: ركبت قعودى ثم أتيت إلى مكة فطلبت رسول الله ﷺ، فأنخت قعودى بباب المسجد، فدلونى على رسول الله ﷺ، فإذا هو جالس عليه برد من صوف فيه طرائق حمر فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فقال: «وعليك السلام». فقلت إنا معشر أهل البادية قوم فينا الجفاءُ، فعلمنى كلمات ينفعنى الله بها. قال: ادن «ثلاثا» فدنوت: فقال: أعد على. فأعدت عليه. فقال: «اتق الله ولا تحقرن من المعروف شيئاً وأن تلق أخاك بوجه منبسط وأن تفرغ من دلوك فى إناء المستسقى، وإن امرؤٌ سبك بما لا يعلم منك فلا تسبه بما تعلم فيه فإن الله جاعل لَكَ أجراً، وعليه وزراً، ولا تسبن شيئاً مما خولك الله تعالى».. قال أبو جرى: فوالذى نفسى بيده ما سببت بعده شاة ولا بعيراً.. ويروى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق».

وروى أن جبريل نزل على النبى ﷺ فقال النبى ﷺ: ما هذا يا جبريل[١]؟ فقال: لا أدرى حتى أسأل ربى فذهب فمكث ساعة. ثم رجع فقال: «إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطى من حرمك وتصل من قطعك» وقد نظم بعض الحكماء هذه المكارم فقال:

مكارم الأخلاق فى ثلاثة ... من كَمُلَت فيه فذلك الغنى
إعطاءٌ من تحرمه ووصل من ... تقطعه والعفو عمن اعتدى

وهكذا فى كل توجيه، أوامر، أو نهى، تبرز سمات المنهج الإسلامى فى قيادة البشرية. الأمر الذى أثمر أطيب الثمرات، وأعطى أحسن النتائج، ووضع فى العفو بين يدى الإنسانية نماذج وأمثلة يشار إليها بالبنان، غدت على بساط الواقع

(١) الإشارة إلى الآية السابقة ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

أحداثا لا تبارى، وظلت فى فم التاريخ، حديثاً لا يمل.

ولا تزال متألقة جديدة وطريفة، مثار جاذبية، وانبهار وتعلق، لدى علماء الأخلاق، وحكماءِ التربية والمشتغلين بعلوم النفس والاجتماع، رصداً وتجريباً وتوجيهاً.

قال رجل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه: «والله ما تقضى بالعدل ولا تعطى الجزل» فغضب عمر حتى عرف ذلك فى وجهه. فقال له رجل: يا أمير المؤمنين ألا تسمع أن الله تعالى يقول: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾. فهذا من الجاهلين فقال عمر: صدقت فكأنما كانت نارا فأُطفئت.

وتاريخ الرعيل الأول من المسلمين ومن تبعهم، تاريخ زاهر، ملىءٌ بأمثلة الهدى. ومن أفضل ما حباهم به الإسلام أنه منحهم الحزم والحكمة، وحباهم بالاتزان والانضباط واعتدال النفس، واتساق العواطف، والقدرة على تقديم الحلم على الغضب، والعفو على الانتقام، والإحسان إلى من أساءَ على العقوبة له.

قال تعالى فى سورة آل عمران: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ والغيظ أشد الغضب وهو الحرارة التى يجدها الإنسان من فوران دم قلبه. ،ويقال الغيظ ألم يعرض للنفس إذا هضم حق من حقوقها المادية كالمال، أو المعنوية كالشرف، فيزعجها إلى التشفى والانتقام، ومن أجاب داعى الغيظ إلى الانتقام لا يقف عند حد الاعتدال ولا يكتفى بالحق، بل يتجاوزه إلى البغى، فلذلك كان من التقوى كظمه.. ويرى كثير من الباحثين أن الغيظ هيجان الطبع عند رؤْية ما ينكره.

وأصل الكظم مخرج النفس، والغيظ وإن كان معنى له أثر فى الجسم يترتب عليه عمل ظاهرة، فإنه يثور بنفس الإنسان حتى يحمله على مالا يجوز من قول أو فعل. فلذلك سمى حبسه وإخفاءُ أثَره كظماً.

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ والعفو عن الناس: هو التجافى عن ذنب المذنب منهم، وترك مؤاخذته مع القدرة عليها، وتلك مرتبة فى ضبط النفس والحكم عليها،

وكرم المعاملة قَلَّ من يتبوأُها، فالعفو مرتبة فوق مرتبة كظم الغيظ، إذ ربما يكظم المرءُ غيظه على حقد وضغينة.

وهناك مرتبة أعلى منهما هى ما أفاده قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فالإحسان وصف من أوصاف المتقين ولم يعطفه على ما سبقه من الصفات بل صاغه بهذه الصيغة تمييزاً له بكونه محبوباً عند الله تعالى، ويروى أن بعض السلف غاظه غلام له فجأة غيظا شديداً، فهم بالانتقام منه فقال الغلام: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ فقال :كظمت غيظى. قال الغلام: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ قال: عفوت عنك، قال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال: اذهب فأنت حر لوجه الله.

ولا شك أنه لا شيءَ كالعفو يقرب المسافات، ويئد الخصومات ويستل السخائم، ويكون عنواناً على سماحة النفس، وسعة الصدر وبعد النظر، وأعظم ما يبدو من أثر العفو ونتائجه، هو ما يمس شئون الأُسر، والبيوت من زواج وطلاق، وما يمس حياة الناس والأُمة من قصاص ودماءٍ، فمن عفا فى مجال الأُسرة وما يتعلق بأفرادها من حقوق كان أقرب إلى تقوى الله وخشيته، وكان أعرف بما ينبغى أن يشيع بين الأُسرة من فضل وسمو نبل، ومن عفا فى مجال القصاص كان أقرب إلى رحمة الله.

وفضيلة العفو من أنبل الفضائل، وأسمى الخلال التى دعا إليها الإسلام لما لها من خطير الأثر، وجليل النتائج فى حياة الفرد والجماعة والأُمة. من حيث كونها تئد كل نزاع وتقبر كل خلاف، وتغلق الباب تجاه العداوات أن تستفحل، والفتن أن تشرئب. . . وأثر العفو فى نفس صاحبه له أكبر الوقع وأحلى المذاق وذلك حقاً هو الانتصار الذى دونه كل انتصار. والعفو فى نفس المسيءِ له تأثيره العجيب والذى ينعكس على أحاسيسه ومشاعره تجاه جرمه وخطيئته ومن اقترف الذنب فى حقه، فيطبع موقفه حياله بكل صور الأسف والندم على ما فرط منه.

إن العفو يعيد إلى العلائق حياتها وحيويتها وجدتها، ويفعل فى النفوس مالا تفعله السيوف، فإذا البعيد قريب قال تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ

بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت: ٣٤].

وللعفو أثره الحيوى فى حياة الناس، وحضارة الإنسانية، والحاضر والمستقبل فكم أحيا من نفوس، وأيقظ من همم، وعدل من أسلوب وسلوك، ولا شيء كالعفو أسرع بالإنسان إلى عفو الله ومغفرته. حيث ينعم برحمته ونعيمه ورضوانه. ولا يصنع امرؤ فى الدنيا خيراً ولا يقدم مؤمن صنيعاً إلا ويجد الجزاءَ عليه جزيلا فى الآخرة يأتيه وهو أحوج ما يكون إليه. قال رسول الله ﷺ: «من سره أن يشرف له البنيان وترفع له الدرجات، فليعف عمن ظلمه، ويعطى من حرمه، ويصل من قطعه».

ألا ما أروع العفو، وما أسرع آثاره، وما أعظم نتائجه على حياة الفرد والأسرة والمجتمع والأمة، فى الدين والدنيا والآخرة. إن الإسلام دين له فى كل شأن من شئون الحياة، والأحياء، تنظيم وتوجيه تتقاصر دونه عقول المفكرين والفلاسفة، والحكماء.

إن الإسلام عقيدة فاعلة ومصدر الفاعلية فى عقيدة الإسلام كان الأس الفكرى والروحى، لإطار عملى تطبيقى يحدد لإنسان العقيدة المؤمن بها، والمؤتمن على سيادة فكرتها وتسويد دعوتها أسلوب تعامله مع الآخرين.

والعفو فى الإسلام موقف عملى يقع فى الصميم من مهمة المسلمين والموقف العملى لا يكون عملياً مالم يحكم بحركة الإنسان.

* * *

فضيلة الإحسان

الإسلام هو المنهج الحق الذى جعله الخالق جل وعلا لإصلاح الخلق وهو الدين الذى لبى فى الإنسانية كل هواتف الروح وأشواق البدن، وضرورات العيش. ومقتضيات الاجتماع، وأحاطهم بكل ما فيه أمنهم وسلامتهم فى حنايا النفس وشئون الحياة كلها.

لقد جاءَ الإسلام يهتف فى الناس بكل خلق جميل، ويندبهم إلى كل فضيلة مثلى، ويدعوهم إلى كل ما يعود إلى أصل الفطرة و إلى كل ما يدعمها ويعلى شأنها، وفى إطار هذا جاءَ الإسلام يدعو المؤمنين به إلى فضيلة الإحسان لا كأمر نظرى مجرد، وإنما كفضيلة لها منهجها العملى العام وخطوطها الحيوية البارزة فى الواقع العقائدى والتشريعى والعملى والسلوكى والأخلاقى والاجتماعى.

والإحسان أفعال من الحسن وهو كل منهج مرغوب فيه عقلا أو حساً أو هوى. والحسنة يعبر بها عن كل ما يسر من نعمة تنال الإنسان فى نفسه وبدنه وأحواله.

والإحسان فى الإسلام فضيلة من أجل الفضائل الإنسانية وخصلة من خصال أهل التقى والعرفان. وهو قسمان: الإحسان بمعنى التفضل والإنعام. فإذا فعل الإنسان الواجب عليه نحو ربه وبنى جنسه وزاد عليه كان ذا فضل عظيم على نفسه حيث أنه أنصفها وأحسن إليها بإخلاصه وقيامه بعمله.

القسم الثانى: الإحسان بمعنى الإتقان. وذلك بأن يقوم الإنسان بأداء ما فرض الله عليه بإتقان مع مراقبة الله وخشيته فى السر والعلانية بحيث لا يقتصر المؤمن المحسن على المفروض والواجب. . وإنما يرمى إلى ما فوق ذلك من كمالات وآفاق لا يرقى إليها ولا يحلق فيها إلا من تعامل بهذا المنهج واستقام عليه، ووضحت أمامه بعد المقارنة الموضوعية والأمينة الرؤيةَ الشاملة.

إن الدعــوة الإسلامية إلى الإحسان، واهتمام آيــات القرآن الكريم بالإحســان هى دفعة قوية للمسلمين لتأخذ بهم إلى الشرف فى أفقــه الأسنى، وإلى الكمال فى برجه العــالى، لأنها دعوة ودفعة إلى الإحسان بمعناه المطلق أولا. ثم بمعناه العملى المتصل الذى يتناول ولاءَ الإنسان المسلم وتدينــه واتباعه لأحسن ما أنزل الله مــن الكتب والشرائع. قال تعالى فى سورة النحــل الآيــة التاسعة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾[1]. والإحسان كما يكون فى العبادات يكون أيضا فى الأمور الدنيوية من زراعة وصناعة وتجارة فيكسبها المسلم بالإتقان حسناً ونضارة. فالتاجر والصانع والزارع إذا أتقن كل منهم عمله وما نيط به. فإنــه لاشــك بإتقانه هذا قد خدم نفسه وجلب لها الكثير، واكتسب رضا الناس من صغير وكبير، وخدم المسلمين حيث قدم إليهم ما ينفعهم ويريحهم ووفر عليهم نفيس وقتهم.

والإحسان يكون بإنفاق المال فى وجوه البر وصنوف الخير مما يعود على المعطى له بل وعلى الأمة الإسلامية جمعاءَ بالسعادة والهناءَة. قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[2].

فكل ما صدق عليه مسمى البر والخير فلا نزاع فى أن الإنفاق فيه حسبما قرره الشرع من الإحسان الذى وعد الله ذويه بمزيد من الفضل والإنعام. . وقد كان الرسول محمد صلوات الله وسلامه عليه أجود بالخير من الريح المرسلة.

(١) النحل: ٩٠.

(٢) البقرة: ١٧٧.

والإحسان يكون ببذل المروءة وكف الأذى وإبداء الصفح والعفو، ومقابلة الإساءة بالذى هو خير. قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾[1].

والإحسان يكون فى الكلمة الطيبة يلقيها المسلم لأخيه المسلم فتفرج من همه، وتكشف من غمه، وتنفس من كربه. واللفظ فى لغتنا العربية قالب الفكرة، ووعاءُ المعنى وبقدر ما يكون حرص الإنسان على حسن اللفظ وحلاوة الكلمة، وطلاوة الحديث بقدر ما تكون منزلته لدى الناس وإقبالهم عليه وألفتهم به. ولهذا كله دعا الإسلام المسلمين إلى إحسان القول واختيار اللفظ. وأوجب علينا ذلك حين يكون المقام مقام دعوة إلى الله وتبليغ رسالة الإسلام. فإن هذا أدعى إلى أن يفتح الله بالكلمة الطيبة واللفظ الحسن قلوباً غلفاً وأعينا عميا و آذانا صما.

قال تعالى فى سورة النحل: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾[2].

والدعوة هنا ـ كما يذكر علماءُ الأمة الإسلامية ـ تكون بالمقالة المحكمة الصحيحة وهى الدليل الموضح للحق المزيح للشبهة.

وهكذا نرى أن الخلال التى جاء بها الإسلام ضمن المنهج الأخلاقى والسلوكى ليست من قبيل الأمور النظرية التى كثيراً ما ولع بها فى القديم والحديث المفكرون والفلاسفة ،وشغلوا بها الناس دون أن يكون لها واقع وإنما جاءت هذه الخلال جزءًا حيويا من منهج متكامل عام وشامل تصب وحداته وروافده فى إيجاد المبادىء العليا وتأصيلها وأخذ الناس بها.

---

(١) فصلت: ٣٤ ، ٣٥.

(٢) النحل: ١٢٥.

والإحسان هو الذى يولد غرائز الفطرة، ويوثق الروابط الطبيعية بين الاقربين حتى تبلغ البيوت فى وحدة المصلحة درجة الكمال، وفى تفسير المنار : ومن لم يكن له بيت لا تكون له أمة، وذلك أن عاطفة التراحم وداعية التعاون إنما تكونان على أشدهما وأكملهما فى الفطرة بين الوالدين والأولاد ثم بين سائر الأقربين فمن فسدت فطرته لا خير فيه لأهله. فأى خير يرجى منه للبعداء الأبعدين؟! ومن لا خير فيه للناس لا يصلح أن يكون جزءًا من بنية أمة لأنه لم تنفع فيه اللُحمة النَسبية التى هى أقوى لحُمة طبيعية تصل بين الناس. فأى لحُمة بعدها تصله بغير الأصل فتجعله جزءًا منهم يَسُرُّه مايسرهم ويُؤْلمه ما يؤْلمهم، ويرى منفعتهم عين منفعته ونضرتهم عين نضرته وهو ما يجب على كل شخص لأمته.

والباحث فى القرآن الكريم والسنة المطهرة يجد أن الإحسان يزامل المسلم ويغوص به ومعه حتى يصل به إلى قاع المجتمع ماراً به فى دوائر متوالية من القرابات والعلائق والصلات من الإحسان إلى الوالدين والإحسان إلى ذوى القربى، والإحسان إلى اليتامى والمساكين، والإحسان إلى الجيران، والإحسان إلى الناس. إن الإسلام يحرص الحرص كله على أن يكون المسلم مركز إشعاع فى مجتمعه وهذا كله من شأنه أن يزرع فى القلوب الألفة، وأن يبث فى الأفئدة الحب وأن ينتشر فى ربوع المجتمعات الإسلامية روح المشاركة الوجدانية بصورة عملية وواقعية، ويمضى الإسلام بالمجتمع فيربيه على فضيلة الإحسان فى حله وفى ترحاله وأسفاره وتنقلاته.

وإن أمتنا الإسلامية تتطلع إلى مجدها الحضارى لتأخذ دورها الحيوى فى إنقاذ الإنسانية من وهدة الضياع والخسران. من هنا كان علينا أن نحافظ على القيم الإسلامية الهادفة، ونعمل بتعاليم الإسلام فى صدق وإخلاص، ولنعود إلى القرآن الكريم لنرتشف من رحيقه، وفى ذلك الشفاءْ.

* * *

فضيلة القناعة

الإسلام هو نظام للحياة الإنسانية الفاضلة المطمئنة، هو نظام لحياة الفرد والمجتمع معاً، أساسه النظرة إلى الإنسان على أنه طبيعة تشتهى، ولكن لها قيادة وتستجيب لدوافع الأنانية ولكن تميل إلى الاجتماع.

وتوجيه الإسلام للإنسان يقوم على تنبيه إرادة الفرد ليأخذ زمام الأمر بيده.

إن الإســلام الحنيف ديــن يهتم بالروح كما يهتم بالجسد، دين يرنو إلى الغايات والقيم الفاضلة، ويتوخى بالمسلمين سلوك الحياة المثلى والعيش الرغد، ويرقى بهم إلى حياة الأمن، والإيمان، والاطمئنان، بعيدا عن المغريات وشهواتها المردية.

ولا ريب أن الحياة الطيبة فى عيشها وظلالها ومعاملاتها هى الحياة التى تزخر بالقناعة والرضا من الميسور من النعمة قليلها وكثيرها. وهذه الحياة يسعد بها المؤمنون بالله والذين هم بما فى يد الله أوثق مما فى أيديهم، ويقدرون النعمة حق قدرها، وحسبهم ذلك غناءً لنفوسهم وفطاماً لها عن الترسل فى الأمانى والتطلع إلى المشتهيات سواءٌ أقبلت عليهم فأسبغت عليهم خيرها أو أدبرت عنهم، فلم ينالوا منها إلا الكفاف.

وقَنِع ـ بكسر النون ـ بنفسه قنعاً وقناعة أى رضى بالقليل وفى الحديث «القناعة كنز لا ينفد»[1]، لأن الإنفاق منها لاينقطع كلما تعذر على الإنسان شىء من أمور الدنيا قنع بما دونه ورضى.

وفى الحديث أيضا: «عز من قنع - بكسر النون - وذل من طمع» لأن القانع لا يذله الطلب فلا يزال عزيزا.

---

(١) لسان العرب لابن منظور جـ ٨ ص ٢٩٧.

وإذا كان هذا هو المعنى اللغوى للقناعة. فإننا نرى المعنى الشرعى واضحاً وذلك أن التاج الجامع للأصول جاءَ فيه: أن القناعة هى الرضا بالميسور واليأس مما فى أيدى الناس توكلا على الله.

ويرى العلماءُ أن قناعة النفس هى أن تضع حداً لحاجتها أو لرغبتها مع القدرة على الاستمرار فى تلبية تلك الحاجة أو هذه الرغبة. ولكى يتصف الإنسان بصفة يجب أن يتوفر به أمران: الأمر الأول: استطاعته على تحقيق المزيد مما تشتهيه النفس، والأمر الثانى: قدرته على الوقوف عند حد معين فى سبيل ما تشتهيه النفس. بفعل الإرادة والعزم الصادقين.

والقناعة بهذا المعنى تقى الإنسان كثيراً من الزلل وتحفظ عليه كرامة الإنسان.

وفى كتاب «الإيمان والحياة» يذكر الدكتور القرضاوى: أن القناعة تعنى أمرين:

أولهما:

الاعتدال فى السعى للغنى، والإجمال فى طلب الرزق، وبذلك يضمن الدين التوازن فى نفس الإنسان وفى حياته ويمنحه السكينة التى هى سر السعادة، ويجنبه الإفراط والغلو الذى يرهق النفس والبدن معاً، ومن ثم قال ﷺ: «يا أيها الناس اتقوا الله وأجملوا فى الطلب، وخذوا ما حل، ودعوا ما حرم»[1]. رواه ابن ماجه.

وثانى ما تعنيه القناعة:

أن يرضى الإنسان بما وهب الله له مما لا يستطيع تغييره، وفى حدود ما قُدِّر له، يجب أن يكون نشاطه وطموحه، فلا يعيش متمنياً ما لا يتيسر له، متطلعاً إلى ما وهب لغيره ولم يوهب له، وذلك كتمنى الشيخ أن يكون له قوة الشباب، وتطلع المرأة الدميمة إلى الحسناءِ فى غيرة وحسد، ونظرة الشاب القصير إلى الرجل الطويل فى حسرة وتلهف.

---

(١) الدكتور يوسف القرضاوى «الإيمان والحياة» ص ١٤٥.

والقناعة من الأخلاق الإسلامية التى يحسن للمؤمن أن يتحلى ويتجمل بها.

ولذلك كان محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام من خير القانعين، غَنِيَّ النفس، راضياً بالرزق الكفاف.. وربما وكل المؤمن إلى ما عنده من القناعة التى تتحلى بها نفسه فلم يعطه، اطمئناناً على ما عنده من فيض الإيمان، وأعطى آخر لما يجد فيه من الفزع والجزع إن لم يعطه خوفاً على إيمانه.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس[1]»!

ومما يلاحظ فى هذا الحديث أن «لكن» جاءَت استدراكاً لدفع توهم أن كثرة العرض ينافى المحمود فدفعه، بقوله: «ولكن الغنى غنى النفس».

وجاءَ فى معنى الحديث، ليس حقيقة الغنى كثرة المال، فكثير من الموسع عليه فيه، لا ينتفع بما أوتى، فكأنه فقير من شدة حرصه وإنما حقيقة الغنى غنى النفس، وهو من استغنى بما أوتى وقنع به ورضى.

وقال القرطبى: وإنما كان الممدوح غنى النفس لأنها حينئذ تكف عن المطامع وتعظم ويحصل لها من الحظوة والشرف والمدح أكثر من الغنى الذى يناله مع كونه فقير النفس لحرصه، فإنه يورطه فى رذائل الأمور وخسائس الأفعال لدناءَة همته وبخله وحرصه. فيكثر من يلزمه من الناس فيصغر قدره عندهم.

والحاصل أن المتصف بغنى النفس يكون قانعا بما قسم الله له لايحرص على الازدياد لغير حاجة، ولايلح فى الطلب، ويرضى بما قسم له.

وغنى النفس إنما ينشأ عن الرضا بقضاء الله تعالى والتسليم لأمره.

وإن ممارسة القناعة فى الحياة تضفى على صاحبها طبيعة غير متكلفة وتشعره بحلاوة هذه الخلة، فينطلق بمزايا القناعة.

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ج ٢ ص ٢٧٥ و ٢٧٦ والحديث متفق عليه.

ويقول ابن حازم:

للناس مــال ولى مــالان ما لهمــا   إذا تحارس أهل المال إحراس
ما لى الرضا بالذات أصبحت أملكه   وما لى اليأس مما يملك الناس

وسئل الحسن البصرى عن سر زهده فى الدنيا فقال: «أربعة أشياء: علمت أن رزقى لا يأخذه غيرى فاطمأن قلبى، وعلمت أن عملى لايقوم به غيرى فاشتغلت به، وعلمت أن الله مطلع على فكرهت أن يرانى على معصية.. وعلمت أن الموت ينتظرنى فأعددت الزاد للقاء الله»..

وجاءَ فى عيون الأخبار لابن قتيبة أن بشار بن بشر قال:

وإنى لعف عن فكــاهـة جـارتى   وإنــى لمشنوءٍ إلــى اغتيــابهـا
إذا غـاب عنها بعلها لم أكـن لها   زءوراً ولـم تـأنس إلىَّ كـلابُهـا
ولم أك طـلاباً أحـاديـث سرهــا   ولا عالمـاً من أى حـوك ثيابهـا
وإنى قراب البطـن يكفيـك ملـؤه   ويكفيك سوآت الأمور اجتنابها
إذا سد باب عنك من دون حاجة   فذرهـا لأخـرى لين لهـا بابـها

والإنسان الفاضل هو الذى يسعى إلى الأعمال الصالحة، ويشغل بها لسانه فى الذكر والقول الصالح بين الناس، ويشغل بها جوارحه فى العبادة والقصد والأخذ والعطاءِ ويشغل بها عقله بالتفكير الناتج من خالص الإيمان بالله والرضا بالقدر خيره وشره، وبذلك يتأثر وجدانه بالرضا والقناعة ومن ثم يعيش الحياة الطيبة التى تفيض بالقبول والسمو.

وكان لابد من توجيهات الإسلام، لتؤدى دورها فى المجتمع الإسلامى، لأن الإنسان لو ترك يستسلم لنزعات الحرص والطمع، لأصبح خطراً على المجتمع، وعلى الإنسانية وعلى الكون. قال تعالى: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١].

ووظيفة الإيمان : أن يحد من سَوْرةِ الحرص والطمع وطغيان الشراهة والجشع على النفس البشرية، فلا تستبد بها، وتجعلها فى قلق دائم، لا تكتفى بقليل ولاتشبع من كثير، ولا يطغى ما عندها فتمتد عينها إلى ما عند غيرها، ولايشبعها الحلال، فيسيل لعابها إلى الحرام، ومن ثم يوجه الإيمان النفوس إلى القيم المعنوية الخالدة وإلى الدار الآخرة الباقية، وإلى الله الحى الذى لايموت.

والأفراد والأمم والجماعات الإنسانية فى أشد الحاجة إلى القناعة لتستروح النفوس نسمات الحياة، وترضى بما قسم الله، وبهذا تعيش المجتمعات فى منأى عن القلق والحرص والطمع والجشع والحسد.

يقول الأصمعى: أبرع بيت قالته العرب بيت أبى ذؤيب الهذلى:

والنفس راغبــة إذا رغبتهـا وإذا تــرد إلى قليــل تقنع

فالإسلام هو رسالة الله لتوجيه الإنسان كطبيعة أعدها الله على خلق خالص وميزها على سواها مما خلق: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(١).

والإنسان فى الإسلام هو الذى ارتقى إلى أسمى صور الإنسانية، حيث لا تتحكم فيه شهوة المال والفرح، وهو الذى خشى ربه، وآمن بجزائه، وعبد ربه دون انقطاع ، وأعطى دون أن يسأل، وحفظ حرمة الغير سراً وعلانية، وأوفى بعهده إن عاهد، وصان الأمانة وأدى الشهادة ، وكلما كان الإنسان مهذباً كلما كان مقدرًا للروح الإنسانية وعارفاً لمنزلتها. ومن ثم لا ينزل بها الهون، بل يسعى فى استمرار إلى وضعها الوضع المقدر لها.

* * *

(١) الإسراء. ٧٠.

فضيلة الحلم

جانب الوجدان فى الإنسان ليس هو العاطفة وحدها، ولكنه التفاعل مع النفس والإنسان الآخر فى مجتمعه ومجال الحياة الذى يعيش فيه.

إنه فى الحقيقة إدراك الجمال والتعاطف معه، وإدراك الحسن، والعمل على أن يكون محسناً. وإذا قيل الجمال فهو جمال السلوك، وجمال القول، وجمال الصنع وجمال العلاقات مع الغير، وجمال الطبيعة.

واستهداف التربية القويمة، والخلق الرضى، والسلوك السوى، والأدب الجم، ورياضة النفس وتحليقها فى أفق الكمال، وارتقائها فى مدارجه، غاية مثلى، طالما فكر فيها وبحث عنها، وعمل لها، وسعى نحوها، الحكماءُ والعلماءُ والباحثون، والمعنيون بالعلوم الإنسانية وشئون النفس.

وإذا نصح الإسلام الإنسان فى معاملته للغير، وفى معاشرته للأسرة أن يرعى حدود الروابط الإنسانية، وأن يتبادل مع هذا الغير الشعور الإنسانى الكريم. إذا ما نصح الإسلام بذلك فإنما يعنى أن يكون هناك تجاوب إنسانى تستريح إليه النفوس، وترضى عنه.

ومن أجل ذلك تهش فى الداخل قبل أن تنبسط أسارير الوجه فى الخارج عند اللقاءِ أو عند الحديث، أو عند المشاركة فى عمل ما، فليس تجاوب النفوس أو رضاها، وسرورها عند اللقاءِ أو عند الحديث، أو عند المشاركة فى عمل ما، إلاَّ ظاهرة تعبر عن الإدراك النفسى الخفى لجمال الألفة وعاطفة الإنسانية.

لهذا كان الحلم فضيلة سامية، وخلقا رفيعا، وخلة لازمة، لصفوة الله من خلقه وخيرته من عباده من أنبياءِ الله ورسله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

والإسلام دعوة إلى الرقى فى كل شىء، وليس أبعد عن حقيقة الإسلام من الانحطاط عموماً لأن الانحطاط يتجافى مع طبيعة الإسلام ويتنافى مع مقام الخلافة الذى بوأه الله للإنسان وسبيل السمو والارتقاء الخلقى والتماسك النفسى، وبه يواصل الإنسان رحلة الارتقاء فى أمن وسعادة وسلام، ولما كان (الحلم) هو حجر الزاوية فى بناء الهيكل الخلقى السليم فقد رضيه الإسلام خلقاً لأبنائه، ودعاهم إليه ورغبهم فيه، وجعله ركنا أساسيا فى أركان بنائه.

قال تعالى:

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(١).

إن الإسلام بما ينصح به الإنسان ـ كى ينمى وجدانه ـ يريد أن يعيش الإنسان فى جو هو جو الاطمئنان والاستمتاع بالحياة الإنسانية استمتاعاً يرفعها فوق مستوى الاحتكاك والخصومة والنفرة وتبادل الإيذاء.

إن المؤمن فى نظر الإسلام هو المحسن، والمحسن هو صاحب الوجدان الرفيع. وهو صاحب الإنسانية فى سلوكه مع نفسه ومع غيره، وصاحب التقدير للطبيعة وما عليها.

والحلم بالكسر الأناة والعقل وجمعه أحلام. وقيل: الحلم هو ضبط النفس والطبع عند هيجان الغضب.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُم بِهَذَا﴾(٢). معناه : عقولهم، وليس الحلم فى الحقيقة العقل لكن فسره العلماءُ بذلك لكونه من مسببات العقل.

وقال عليه الصلاة والسلام فى صلاة الجماعة: «ليلينى منكم أُولو الأَحلام

(١) آل عمران: ١٣٣ ، ١٣٤.

(٢) الطور. ٣٢.

والنهى[١]». أى ذوو الألباب والعقول، واحدها «حلم» وكأنه من الحلم والأناة والتثبت فى الأمور وذلك من شعار العقلاء.

ويقول صالح بن جناح اللخمى:

فإن كنت محتاجاً إلى الحلم إننى ... إلى الجهل فى بعض الأحايين أحوج
ولى فرس للحلم بالحلم ملجم ... ولى فرس للجهل بالجهل مسرج
فمن شاءَ تقويمى فإنى مقوم ... ومن شاءِ تعويجى فإنى معوج

والحلم خلق العلية من الناس والأفاضل من البشر. ولذا دعا إليه الإسلام، ورغب فيه، وحض عليه، ووعد عليه بالجزاء، والخير الأبقى، والعفو العظيم، فى جنة عرضها السموات والأرض أعدها الله تعالى لمن يضبطون أنفسهم، ويملكون زمامهم، ويمسكون عواطفهم ويقتصدون فى انفعالاتهم، ويتحكمون فى نزوعهم، ولديهم القدرة على تصريف شحنات الغضب، وكبت بواعثه، وكبح جماحه، وكفكفة شره، والحد من غلوائه، وإطفاءِ جمرته وتبديد دخانه، وتبديل دوافعه، من الانتقام إلى الحلم، وتعديلها من المؤاخذة إلى الكظم والعفو.

ولذا لم يعرف الحلم إلاَّ فى أهل الحزم والكياسة، وذوى النفوس الكبيرة والطاقات الهائلة، والآفاق الرحبة، التى سرعان ما تتمزق فى سمائها سحب الغضب وينقشع لتوه ضباب الانتقام وكدر اللجاجة، فإذا هم بحلمهم يطاولون النجم رفعة وسمواً، ويضاهئون البحر صفاءً وطهراً.

وهناك أسباب باعثة على الحلم، جد الباحثون فى استنباطها واستخراجها لتكون منارة تضيءُ أمام السالكين، وومضات مشرقة فى الطريق.

والأول من هذه الأسباب : الرحمة للجهال وإعذارهم، وقد قيل فى منثور الحكم: من أوكد أسباب الحلم رحمة الجهال»، وقال أبو الدرداء رضى الله عنه

(١) الحديث موجود فى لسان العرب لابن منظور ج ١٢ ص ١٤٦.

لرجل أسمعه شتائم: يا هذا لا تغرق فى سبنا، واجعل للصلح موضعاً، فإنا لا نكافىءُ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله عز وجل فيه.

والثانى : القدرة على الانتصار، وذلك من سعة الصدر وحسن الثقة، وقد روى عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال :«إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو شكراً للقدرة عليه».

والثالث: الترفع عن السباب، وذلك من شرف النفس وعلو الهمة كما قال الحكماءُ: «شرف النفس أن تحمل المكاره كما تحمل المكارم».

والرابع: الترفع عن المسىء. ومما يذكر أن رجلاً شتم ابن هبيرة فأعرض ابن هبيرة عنه، فقال له الرجل: إياك أعنى. فقال ابن هبيرة: وعنك أُعرض. وأكثر رجل من سب الأحنف وهو لا يجيبه. فقال الرجل : ما منعه من جوابى إلا هوانى عليه واستحى. وقال أحد الزعماءِ حين حرُض على جواب من سبه:

أو كلما طن الذباب طردته إن الذباب إذن على كريم

والخامس: الاستحياءُ من جزاءِ الجواب. وهذا يكون من صيانة النفس وكمال المروءَة. ويقال فى الحكمة : «احتمال السفيه خير من التحلى بصورته، والإغضاءُ عن الجاهل خير من مشاكلته.

والسادس: الكرم وحسن التألف. وقد قيل للإسكندر المقدونى: إن فلاناً وفلاناً ينقصانك ويصيبانك فلو عاقبتهما . فقال: هما بعد العقوبة أعذر فى تنقصى وثلبى، فكان هذا تفضلا منه وتألفاً. وحكى أن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال لعامر بن مرة الزهرى: من أحمق الناس؟ قال: من ظن أنه أعقل الناس. قال : صدقت. فمن أعقل الناس ؟ قال : من لم يتجاوز الصمت فى عقوبة الجاهل.

والسابع: المكر وتوقع الفرص فى المستقبل، وهذا يكون من الدهاءِ، فغضب الجاهل فى قوله، وغضب العاقل فى فعله.

وبجانب هذه الأسباب توجد أسباب دينية لأن الحلم حقيقة من خلال الإيمان وصفات المؤمنين، وما كان الإيمان فى حياة الناس إلا ليضبط الفطرة فيهم، ويعلى من شأنها، فلا تتدلى إلى الحيوانية ولا تهبط إلى الدون.

وشأن المؤمن دائماً أن يكون حريصًا على معالى الأمور، ومترفعاً عن سفاسفها، متعلقاً بأهداب الكمال، ساعياً إلى إحرازها والاتصاف بها.

وخلق الحلم فى نفس المؤمن انعكاس طبيعى لإيمانه، ودليل حيوى على مدى انتفاعه بهذا الإيمان، وترجمته إلى الخلق، وتجسيده فى أسلوب وسلوك يتعامل به مع الناس ويكون هو المنهج الذى يحتكم إليه فى تصرفاته معهم، فإذا جهلوا عليه كان إيمانه مركز الإمداد والتوجيه والإشعاع الذى يملى عليه أسلوبا محدداً، وسلوكاً خاصاً، يفرض عليه ضبط النفس، ويلزمه بهدوء الأعصاب، ريثما تمر العاصفة ثم لا يكون الحلم بعد إلا رد الفعل الطبيعى لهذا الإيمان.

والأسباب الدينية الباعثة على الحلم نجدها على النقاط التالية:

١ ـ أن يذكر الله تعالى عند الغضب فيدعوه ذلك إلى الخوف منه ويبعثه على الطاعة له، فيرجع إلى أدبه، فعند ذلك يزول الغضب قال تعالى: ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف: ٢٤]. قال عكرمة: إذا غضبت.

٢ ـ ومنها أن يذكر ما يؤول إليه الغضب من الندم ومذمة الانتقام قال الحكماءُ: الغضب على من لا تملك عجز، وعلى من تملك لؤم.

٣ ـ ومنها أن يذكر ثواب الحلم فيقهر نفسه على الغضب رغبةً فى الجزاءِ والثواب وحذراً من استحقاق الذم والعقاب. جاءَ فى الأثر:

«الخير فى ثلاث خصال فمن كن فيه فقد استكمل الإيمان: من إذا رضى لم يدخله رضاه فى باطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه من حق، وإذا قدر عفا».

٤ ـ ومنها أن يذكر انعطاف القلوب عليه، ومحبة الناس له بالحلم والصفح فيكف عن متابعة الغضب رغبة فى التأليف وجميل الثناءِ.

ولم يُرَغِّب الإسلام فى الحلم ويدعو المسلمين للاعتصام بحبله، والعيش فى وارف ظله لمجرد أنه زينة نفس أو كمال خلق، ولكن لأنه إرادة إيجابية لمكافحة الشر، وتفادى الأزمات. وإن أدوأ الداء، وأنكى الأمراض تسرع يحفز إلى الانتقام، ويحجب منافذ الفكر، ويقتل الحكمة، وعند ذلك تكون القوة الجسمية أو السلطان سلاحاً بتاراً فى يد مجنون تزهق به النفوس، وتتطاير به الرؤوس دون ما وعى أو إدراك.

والحلم هو العلاج بل صمام الأمان الذى يحول القوة الجسمية والأدبية إلى سلاح مغمد في جرابه لايستخدم إلا بتراً للشر، وتقليماً لأظافر الطغيان. وكثيراً ما حفل تاريخ الأمة الإسلامية بنماذج اتصفت بالحلم فنضرت وجه الإنسانية، وغدوا فى حياتها معالم وضيئة، ومُثُلا رائدة، بل كثيراً ما زادوا على الحلم وارتقوا فوقه، وتخطوا مقامه إلى مقام الإحسان، فكانوا لايتوقفون عند مجرد الحلم على من جهلوا عليهم وإنما كانوا يحسنون إليهم، ويمدون إليهم يد العون والمساعدة رغبة فى استلال سخيمتهم. وهذا بطبيعة الحال أوج لايعيش فيه، ولا يرقى إليه إلا من رباه الإيمان وهذبه الوحى. قال تعالى فى سورة فصلت: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾.

وإن للحلم فى الحياة الإنسانية أثره البارز وعواقبه الحميدة، حيث يصل من حبل الألفة ما يكاد ينقطع، ويجمع من شمل الأمة ما يكاد يتوزع، به يحل الأمن محل الخوف، ويقر الوئام والوفاق مكان الخلاف والشقاق، به يرتفع الكبير، ويكبر الصغير وتختصر المسافة، سيما فى مجال الإصلاح، والتقويم والتربية. والحلم عامل هام وأصيل فى سلام الإنسانية وأمنها الاجتماعى، ورقيها الأخلاقى، ووحدتها التى يجب دعمها وإثراؤها، وعدم تعريضها للانفعالات النزقة، والانتفاضات الطائشة.

والأمة المنضبطة هى أعز الأمم فى نفسها وعلى الناس، والأمة الجهولة الحمقى هى أخرق الأمم وأهونها على نفسها وعلى الناس.

* * *

فضيلة التواضع

إن من البديهيات فى بناءِ الشخصية الإنسانية وصقل جوهرها أن يعرف الإنسان وضعه، وأن يقدر نفسه، وأن يعقلها بحجمها الحقيقى، وأن يتصورها فى نطاقها المناسب، دون تهويل أو تزيد يضفيان عليها هالة ليست لها، أو انتقاصاً وتهويناً يبخسانها امتيازاً فيها. لأن فى التزيد من قيمة النفس والتضخيم من حجمها تهويلا لشأنها قد لاتستحقه وليست هى فى حاجة إليه، وإذا استشرى هذا، وتغلغل فى توجيه الإنسان أدى إلى إصابة النفس بالعجب والاختيال والفخر، ثم بالغرور والغطرسة والكبر.

كما أن فى انتقاص النفس والتهوين من شأنها، تحقيراً لها، واستخفافاً بها، وقد يؤثر هذا فى شخصية الإنسان، فيصيبها بالقلق والاضطراب والتردد ثم بالخوف والانزواءِ والعزلة.

وكل هذه الصفات التى تصيب النفس وتؤثر فى نموها وعلاقاتها واتجاهاتها، إنما هى ثمار خبيثة، وسلوك معوج. يأتى لما بذر فى النفس من بذور الضعة والهوان أو الكبر والعلو.

وخير ما يقى النفس الإنسانية شر هذه وتلك، هو أن يدرك الإنسان معنى التواضع، ويلتزم بالمنهج الإسلامى الذى جاءَ به الإسلام الحنيف.

والتواضع فضيلة الفضائل، وأساس مكارم الأخلاق. يقول ابن منظور فى لسان العرب: إن التواضع فى اللغة هو التذلل، وتواضع الرجل ذل، والتواضع لايكون إلاَّ لله سبحانه. وقيل التواضع: الاستسلام للحق وترك الاعتراض على الحكم. وذكر أحد العلماء: أن التواضع قبول الحق ممن كان.. وسئل أحد الصالحين عن التواضع فقال: خفض الجناح للخلق ولين الجانب لهم. وقال الفضيل وقد سئل عن التواضع ما هو؟ فقال: أن تخضع للحق وتنقاد له ولو

سمعته من صبى قبلته ولو سمعته من أجهل الناس قبلته. وقال عبد الله الرازى: التواضع ترك التمييز فى الخدمة.. وهذه التعاريف التى جاءت فى التواضع، تدعو فى وضوح إلى تهذيب الطباع النفسية والنزعات الفطرية والعمل على الحد من غلواء النفس حتى لا تطغى بصاحبها فتتردى به فى مهاوى الغرور والهلكة. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]. وروى الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله عز وجل: «الكبرياءُ ردائى والعظمة إزارى، فمن نازعنى واحداً منهما قذفته فى النار»[2] وروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر. قال رجل: يارسول الله إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً. قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس» وبطر الحق أى دفعه، وغمط الناس احتقارهم.

فالإسلام الحنيف جاءَ يدعو الناس إلى التواضع، ويأمر به، ويحض عليه، ويهتف بالمؤمنين أن يأخذوا أنفسهم به ويلتزموه، ويجنحوا له مستمسكين بالحق، مقبلين عليه منقادين له.. ولقد كان رسول الله ﷺ أحرص الناس على التزام التواضع، وكان فى ذلك مضرب الأمثال فى كل أحواله: فى أقواله ونصائحه وتوجيهاته وأساليب تربيته، ثم فى أعماله اليومية، وممارسته العادية، مع أصحابه، وفى بيته، وبين أهله، ومع خدمه، وفى حله، وفى سفره وفى ركوبه وفى مشيه وفى حديثه ومعاملاته وعباداته. وفى كل شأن من شئونه. وفى رياض الصالحين عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «لو دعيت إلى كراع أو ذراع لأجبت، ولو أهدى إلى ذراع أو كراع لقبلت»[3]، وعن أبى غالب قال: قلت لأبى أمامه: حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ قال: كان حديث رسول الله ﷺ:

(١) القصص: ٨٣.

(٢) الترغيب والترهيب للمنذرى ج ٣ ص ٨١٦ (ط مكتبة الجمهورية بمصر).

(٣) رياض الصالحين ص ٢٧٥.

«القرآن، يكثر الذكر، ويقصر الخطبة، ويطيل الصلاة، ولا يأنف ولايستكبر أن يذهب مع المسكين والضعيف حتى يفرغ من حاجته»(١).

وروى مسلم عن عياض بن حماد رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لايفخر أحدٌ على أحد ولا يبغى أحَدٌ على أحد»(٢).

والذى يسبر فضيلة التواضع يدرك أنها خليقة من أنبل الخلائق وأسمى الخلال التى يدعو إليها الإسلام ويرغبنا فيها، ويأمرنا أن نأخذ فى سلوكنا دور الممارسة الفعلية الحانية الأصيلة التى تشيع فى المجتمع كله بحيث يعرف الإنسان نفسه، ويقدر ربه، ويذل لجلاله، ويذعن للحق، ويلين له، ويقبل عليه، ويسلم إليه، وبه وفيه يرفق بالخلق، ويلين لهم، فيخفض جناحه، ويدنو بجانبه، ويطامن من نفسه هاشًا فيهم، وباشًا لهم، ويمنحهم من وده، ويعطيهم من عطفه، ويحيطهم بألفته، ويغمرهم بأنسه. أجل. يتواضع المرءُ فى ذاته وفى مشيته وحركته وقوله وحديثه ومعاملته خشوعاً وخضوعًا، ووقاراً واتزاناً.

ويتواضع المرءُ مع أهله: أبويه وزوجه وأولاده وقرابته وذوى رحمه. براً بشيوخهم، ورفقًا بضعيفهم. وشفقة بصغيرهم وودًا لهم جميعًا وإحساناً بهم وبأبناءِ المجتمع الإسلامى عامة من طيب عشرة وحسن خليقة ولين عريكة، وكرم معاملة وإغضاء عن الهفوات، وصفحٍ عن الزلات، ومعرفة لأقدار الناس وإنزالهم منازلهم. روى الإمام أحمد والحاكم عن عبادة بن الصامت رضى الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال: «ليس منا من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه».

والمؤمن الحق الذى امتلأ قلبه بالإيمان هو الذى يعقل ويدرك أن التكبر لايرفع صغيرا، وأن التواضع لا يخفض كبيراً، وأن خفض الجناح، ولين الجانب، والرفق

(١) مجمع الزوائد جـ ٩ ص ٢٠.
(٢) رياض الصالحين ص ٢٧٣

والرحمة أمور ما شاعت فى الأمة إلاَّ كانت سبيل أُلفتها، وباعث وحدتها. وكم للرسول الأمين محمد عليه الصلاة والسلام، وكم لأصحابه رضوان الله عليهم، والتابعين والصالحين، من وقائع فى التواضع غدت آية الآيات، وأول الشواهد على ما اتسموا به من خلق رضى، وسلوك سوى، وفضائل ذاتية انعكست آثارها على صفحة المجتمع فأحالته مجتمعاً متوادًّا متحابًّا، على نحو ما وصف القرآن الكريم فى قوله تعالى فى سورة الفتح.

﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا . . .﴾(١).

والمتواضعون من المسلمين هم أهل الحظوة بعبوديتهم لله سبحانه وتعالى، ولقد بلغ من شرف التواضع وعظيم أثره أن جعله الله أول الأوصاف التى وصف بها عباده فقال تعالى فى سورة الفرقان **﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾**(٢). وفى معنى الآية يقول الشيخ المراغى فى تفسيره: أى وعباد الله الذين حُقَّ لهم الجزاء والمثوبة هم الذين يمشون فى سكينة ووقار لا يضربون بأقدامهم كِبرًا ولا يخفقون بنعالهم أشراً وبطرًا. . روى أن عمر رضى الله عنه رأى غلاماً يتبختر فى مشيته فقال: إن البخترة مشية تكره إلاَّ فى سبيل الله. وقد مدح الله أقواماً فقال: **﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾** فاقصد فى مشيتك. وقال ابن عباس: هم المؤمنون الذين يمشون علماءَ حلماءَ ذوى وقار وعفة.

والمتواضعون من المؤمنين أكرمهم الله سبحانه وتعالى برفع الدرجات وأعلى المقامات والمراتب فى الدنيا والآخرة. . ولا يطيب العيش فى الدنيا، ولا الحياة فى الآخرة، إلّا لأهل الخضوع والتواضع، والمنقادين للحق المذعنين له، والصالحين المصلحين الذين لا يريدون علواً فى الأرض ولافساداً.

---

(١) الفتح: ٢٩.

(٢) الفرقان: ٦٣.

وأثر التواضع فى المجتمع الإسلامى يبدو واضحاً عندما تتكامل المودة بين الناس ويكثر التآلف والتآخى، والتعاطف والتعاون والاحترام الوفاءُ والصدق والإخلاص.

والأُمة الإِسلامية فى أشد الحاجة إِلى الالتزام بالمنهج الإِسلامى لتأخذ طريقها فى الحياة بقوة، وتتمكن من مواجهة الأخطار المحدقة بالمسلمين.

ألا ما أعظم الإِسلام وما أجله وهو يدعو المسلمين إِلى التواضع كعنصر حيوى وفعال فى تمامل الشخصية واتساق جوانبها، وما يكون لذلك من ثمرات البر والمرحمة واللين والرفق التى تأخذ سبيلها إِلى سلوك الناس وحياتهم وتعاملهم.

* * *

فضيلة العفة

العفة : فضيلة الفضائل الإنسانية، وخلة من أجمل الخلال، التى تسمو بالنفس، وتصل بها إلى مراقى السعادة.

والعفة: ضبط النفس عند الشهوات وقسرها على الاكتفاء، بما يحفظ الصحة، واجتناب السرف والتقصير، وقصد الاعتدال. وأن يكون ما يقتصر عليه من الشهوات على الرجه المستحب المتفق على ارتضائه، وفى أوقات الحاجة التى لا غنى عنها وعلى القدر الذى لايحتاج أكثر منه.

والعفة : إحدى الفضائل الكبرى، وهى الحكمة، والعفة ، والشجاعة، والعدالة، فالحكمة فضيلة العقل، والشجاعة فضيلة القوة الغضبية، والعفة فضيلة القوة الشهوانية، والعدالة هى الفضيلة الجامعة بين هذه الفضائل كلها.

ويرى ابن مسكويه: أن الفضائل التى تحت العفة كثيرة منها : الحياءُ، والدعة، والصبر، والسخاءُ، والحرية، والقناعة، والدماثة والانتظام، وحسن الهدى، والمسالمة والوقار، والورع. . فالعفة أصل لكثير من الفضائل الهامة، ومن حرم العفة لم تتم له واحدة من الفضائل الإنسانية، ومن يفقد العفة لايثبت على محن الأيام، ولا يقنعه قليل ولا كثير ، ولا يمسك لسانه عن باطل، ولا يتورع عن الولوغ فى الأغراض، ولا يستطيع أن يتخلص من تعطيش نفسه إلى لانتقام.

وكذلك لا يستطيع أن يسخو عند نداءِ صوت الواجب، ولا أن يعدل فى معاملته بل يتمنى لو عاد كل نفع إليه، واجتمع كل خير لديه.

والعفيف من يباشر الأمور على وفق الشريعة والمروءَة والعقل.

والعفيف يعطى الكثير إن وجد، ويكتفى بالقليل إن فقد، ويجازى على الصنيعة إن استطاع بمثلها أو خير منها ، ، أو بالشكر حين يعجز عنها.

والعفيف يسكت عن الخنا والفحش ، ويزهد فيما ليس من حقه وإن عضه البؤس بنابه، وجرعه مر شرابه، يعاف كل خير وراءَه والمن والأذى، وينأى بجانبه عن مواطن الصغار. وتكبر نفسه حيث تتضاءل كل نفس، ويتوارى حيث لا يتظاهر إلا كل خسيس. ويتكرر كل شحيح، ويمنع كل بخيل.

وليست العفة بمانعة من طلب الحق بالوسائل الشريفة والسعى إلى المعالى من وجوهها المشروعة . وما أبدع قول عنترة:

يخبــرك من شهـد الـوقيعــة أننــى

أخشـى الوغــى وأعـف عنـد المغــنم

وقول متمم يرثى أخاه مالكا:

لا يضـمر الفحشــاء تحــت ردائــه

حلــو شمـائلـــه عفـيـف المئـــزر

وقد نجد فى بحوث كثير من العلماء من لا يفرق بين العفة والقناعة لتقارب مدلوليهما، ولكثرة ما يقع فى أساليب اللغة من التسامح، لأن الفضائل الإسلامية تلتقى كلها فى مجرى واحد ولكن الفرق بين العفة والقناعة فى باب الأخلاق ظاهر بين. إذ العفة تقتضى ضبط النفس عن جميع الشهوات وعن كل مالا يليق بإنسان فاضل. فالعفيف تنهاه عفته عن التعرض للمحاور مادق منها وما جل، وعن الخوض فى الأعراض وعن مماراة السفهاء، وعن كل ما يمس الكرامة.

أما القناهة التى هى الاكتفاء باليسير من مطالب البدت فقد توجد حيث لا توجد العفة، فقد يقال على رجل إنه قانع لأنه يكتفى بأقل مطالب البدن، ولكن لايقال عليه إنه عفيف لأنه لا يعف عن الكذب والغيبة.

ويذكر الباحثون فرقاً آخر : وهو أن العفة فضيلة ذاتيه لاتتغير بتغير الأحوال والأشخاص أما القناعة فنسبية، فإن ما يقنع به بعض الناس لا يقنع به آخرون . كذلك ما يعد قناعة اليوم قد لا يحسن الاقتناع به غداً وبالعكس. وقد نشاهد ذلك أو نراه رؤية علمية. وهذا امرؤ القيس وهو لايزال فى مجده يقول.

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة
كفانى ولم أطلب قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثَل
وقد يدرك المجد المؤثَل أمثالى

وعندما أحس بتقاصر قواه وعجزه عن تحقيق آماله قال :

لنا غنم نسوقها غزارا كأن قرون جلتها العصى
فتملأ بيتنا أقطا وسمنا وحسبك من غنى شبع ورى

ولعلنا ندرك فى وضوح أن العفة لا توجد إلا حيث توجد مواقع الشهوات ويسلط عليها العقل لضبطها كما يجب. ولهذا قدم الله سبحانه وتعالى الأمر بغض البصر، على الأمر بحفظ الفرج، فقال من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: «اضمنوا لى ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة، اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا ائتمنتم، وغضوا أبصاركم، واحفظوا فروجكم، وكفوا أيديكم».

فالنظر رائد الفجور والعصيان، والمثير للشهوات، والمحرك للمفاسد، ولهذا أمرنا الشاعر الحكيم بتلافى هذا الضرر فى أول أمره قبل أن يستفحل . ولله در القائل:

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
والمرءُ مادام ذا عين يقلبها فى أعين الغيد موقوف على الخطر
كم نظرة فعلت فى قلب صاحبها فعل السهام بلا قوس ولا وتر
يسر مقلته ماضر مهجته لامرحباً بسرور جاءَ بالضرر

(١) النور: ٣٠.

كذلك تجد الإسلام قد كلف المرأة بغض البصر، وعدم النظر إلى أجنبى منها كما حرم عليها أن تبدى دينتها خوفا من الافتتان بها، ولكى تصل بعفة نفسها، وطعارة ذيلها، إلى صون كيانها وحفظ مركزها. قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

وروى البزار والدار قطنى من حديث على رضى الله عنه أنه ﷺ قال لابنته فاطمة الزهراء رضى الله عنها (أى شيء خير للمرأة؟ قالت : أن لا ترى رجلا ولا يراها رجل، فضمها إلى صدره. وقال : ذريه بعضها من بعض والله سميع عليم).

وإذا رغب المسلم لنفسه ولأسرته حياة طيبة، وأحب أن يعيش مصون العرض موفور الكرامة، فليتأمل قول النبى الكريم محمد ﷺ «عفوا تعف نساؤكم وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم».

فقد جعل الرسول الكريم عفة الزوجات مترتبة على عفة الأزواج ويقول الإمام الشافعى فى هذا المعنى أبياتا كلها تفيض بالعظة البالغة:

عفوا تعف نساؤكم فى المحرم ... وتجنبوا مالا يليق بمسلم
إن الزنا دين فإن أقرضته ... كان الوفا من أهل بيتك فاعلم
إن تزن فى امرأة بألفى درهم ... فى البيت قد يزنى بدون الدرهم
من يزن به ولو بجدارة ... إن كنت يا هذا لبيبا فافهم
يا هاتكا حرم الرجال وكاشفا ... ستر الحرائر عشت غير مكرم
لو كنت حرا من سلالة طاهر ... ما كنت هتاكا لحرمه مسلم

وإذا كان المسلم لايرضى لأهله السوءَ والفحشاءَ فكذلك من الإيمان ألا يرضاه لغيرهم. وقديما قيل: إذا أردت ألا تؤذى فلا تفعل الأذى.

والعفة فى الإسلام فى شأنها شأن كثير من الفضائل السامية لاتحصل ملكتها بالتعليم النظرى، ولا تتم فضيلتها بالأمر والنهى فحسب، بل لابد وأن يصاحب ذلك قدوة ورياضة عملية. فإذا لقن النشء العفة، فلكى يألفها، لابد أن يكون المربى عفيفاً قبل كل شىء ينأى عن الدنايا، ويحبس نفسه عن نزواتها، فلا يعطى نفسه من حاجات البدن الا بقدر الحاجة فى أوقاتها المناسبة. وأن يتعود حين يسر فطم النفس عن مطالب التنعم، حتى إذا مانزلت به الأيام عن مستواه، ظل كريم النفس، موفور الكرامة.

وإن عفة رب الأسرة عن المحارم لتكون أبلغ درس فى العفة يلقنه لزوجته وأولاده. وإنه ليندر أن ترى فاجراً من بيت عفيف وإنه لمن فضل الله عن المسلمين أن كانت العفة الكاملة خلق نبينا محمد ﷺ وخلق أصحابه الأماثل وتابعيهم الأفاضل وعلماء الإسلام الأعلام.

فيا حبذا لو أننا جميعاً تتبعنا أسرار التعاليم الإسلامية، واتبعنا تلك الإرشادات الحكيمة ، وعملنا بمقتضى توجيهات الإسلام لكنا من أقوى الأمم بأسا، ولعاد لنا مجدنا الأصيل.

* * *

فضيلة الإيثار

إن تعاليم الإسلام التى شرعها الخالق لإصلاح حال الخلق، جاءت لتنقل البشرية إلى حياة مشرقة بالفضائل. وما جاءَ به الإسلام من عقيدة، وما افترضه الله على عباده من عبادات، وما دعا إليه الرسول الصادق الأمين من سلوك فاضل وأخلاق حسنة. إنما هو السبيل الوحيد للإنسان لكى تسمو نفسه بالخير وتفيض بالمشاعر الرقيقة للمسلمين، حتى إنه ليحيا بهم ويحيا لهم، لأن المجتمع الإسلامى علاقات بين أفراد تجمعهم وحدة الهدف، أدركوا ما بينهم من صلات، كما أدركوا الوجود المشترك الذى يتبادلون فى إطاره دفع الأضرار وتحقيق المنافع، والذين يمارسون فيه السعى الجماعى من أجل المثل والقيم. وإذا ما نصح الإسلام الإنسان فى معاملته للغير، وفى معاشرته للأسرة أن يرعى حدود الروابط الإنسانية، وأن يتبادل مع هذا الغير الشعور الإنسانى الكريم. وإذا ما نصح الإسلام بذلك فإنما يعنى أن يكون هناك تجاوب إنسانى، تستريح إليه النفوس وترضى عنه، وليس تجاوب النفوس إلا ظاهرة تعبر عن الإدراك النفسى لجمال الألفة وعاطفة الأخوة الصادقة.

وحينما تطرأ على النفوس أدران الوساوس، وتنتابها نوازع التفرقة والأثرة والانعزالية، يأتى الاسلام فيسدى المعونة الكاملة للإنسان كى يدعم فطرته ويجلى أشعتها، فيتحسس هذه النفوس ويغسلها مما علق بها، ويجعلها حافلة بمشاعر أزكى وأنقى، والمؤمن فى نظر الإسلام هو المحسن، والمحسن هو صاحب الوجدان الرفيع، صاحب الإنسانية فى سلوكه مع نفسه ومع غيره.. إن رسالة الإسلام ليست تخطيطاً من إنسان، وليست طريقا من طرق التربية وضعه فرد من البشر. إن الإسلام وحى الله العليم بكل شيء. والإسلام ليس معرفة أنه إيمان وتقوى، إنه إيمان بالله، وخشية من الله، وتقوى الله، وهذا الإيمان هو مصدر الدفع فى الإنسان نحو اطمئنان نفسه، ونحو وعيه بالمجتمع. ونحو إسهامه فى بناء المجتمع واستقراره.

وإننا نرى فى وضوح أن قوة الإيمان بالله، والتصديق برسوله ﷺ تجعل النفس الإنسانية تشرق بالكثير من صفات الخير، وتتخلق بالآداب والفضائل العظيمة، ولقد أثبت التاريخ والتجربة أن هذا الإيمان وهذا التصديق صنع رجالا ونشاءً اصطبغ سلوكهم بالشمائل الجليلة فكانوا يؤثرون إخوانهم بأموالهم وديارهم على أنفسهم، ويتنازلون عن قسمهم فى الغنائم من أجلهم، ويقدمون حاجة إخوانهم على حاجتهم، حبا لهم، ورغبة فى إخوانهم.

والإيثار هو تقدير الغير على النفس وحظوظها الدنيوية رغبة فى الحظوظ الدينية، وذلك ينشأ عن قوة اليقين وتوكيد المحبة والصبر على المشقة. ويقال: آثرته بكذا أى خصصته به وفضلته.. قال تعالى فى سورة الحشر، فى شأن الأنصار الذين آثروا المهاجرين بأموالهم وديارهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١].

ويقول ابن كثير فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أى يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم، ويبدأون بالناس قبلهم فى حال احتياجهم إلى ذلك وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال «أفضل الصدقة جهد المقل» وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله تعالى ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾[٢] و﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾[٣] فإن هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به. وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه . ومن هذا المقام تصدق الصديق رضى الله عنه بجميع ماله فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك» فقال: أبقيت لهم الله ورسوله.

وفضيلة الإيثار كان لها غعند رسول الله ﷺ أهميتها لما لها من غظيم الأثر على أصحابه. فكان يحرص على أن يتخلفوا بها ويتجملوا بجميل فعلها، وكان

(١) الحشر: ٩.
(٢) الإنسان: ٨.
(٣) البقرة: ١٧٧.

رسول الله عليه الصلاة والسلام هو السباق إلى ما يدعو إليه ويأمرهم به، فإذا قصده أحد فى شىء وهو المحتاج إليه أعطاه إياه رغبة فى فعل الخير.

إن الإيمان الصادق إذا صادف قلوباً هيئت له، تمكن فيها، ونما وترعرع. وأشرقت آثاره على من حولها، وسعى أصحاب هذه القلوب فى إدخال السرور على الغير، والأخذ بأيديهم إلى ما يحبون وأصحاب الرسول ﷺ ضربوا أروع المثل فى هذا فكان اغتباطهم أكبر وأعظم حينما يؤثرون الغير على أنفسهم. ولقد كان لهذا الإيثار أعظم النتائج فى نشر الإسلام والاهتمام بالمسلمين. ومما يذكر فى تفسير القرطبى أن ابن المبارك قال : إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أخذ أربعمائة دينار فجعلها فى صرة ثم قال للغلام : اذهب بها إلى أبى عبيدة بن الجراح، ثم تلكأ ساعة فى البيت حتى تنظر ماذا يصنع بها، فذهب بها الغلام إليه. فقال : يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذا فى بعض حاجتك. فقال: وصله الله ورحمه . ثم قال: تعالى ياجارية اذهبى بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، حتى أنفذها . فرجع الغلام إلى عمر فأخبره فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل وقال : اذهب بهذا إلى معاذ بن جبل وتلكأ فى البيت ساعة حتى تنظر ماذا يصنع، فذهب بها إليه. فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذا فى بعض حاجتك فقال: رحمه الله ووصله. وقال: يا جارية اذهبى إلى بيت فلان بكذا، فاطلعت امرأة معاذ، فقالت: ونحن والله مساكين فأعطنا . ولم يبق فى الخرقة إلا ديناران قد جاءَ بهما إليها. فرجع الغلام إلى عمر فأخبره، فسر بذلك وقال : «إنهم إخوة بعضهم من بعض».

إن تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية حبا ورغبة فيما هو عند الله سبحانه وتعالى، وأملاً فى رحمته جل شأنه، حصيلة إيمانه كامل، وثمرة يقين راسخ، ولقد تألق المسلمون الأوائل فى الإيثار بالنفس، وبلغوا فيه درجة عليا، ومكانة عطى . لقد أثمر الإيمان بالله فى قلوبهم إيثار الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى وحب رسوله على نفوسهم. فقدموا أرواحهم فداءً للإسلام. وصاحب الرسالة محمد عليه الصلاة والسلام. وأصحاب المبادىء الحقة والدعوات الصادقة

يقدمون أنفسهم فداءً للدعوة، والذين شرح الله قلوبهم للإسلام وخالط شغافها، وأشربت حبه، لا تزعزعهم الأهوال مهما عظمت، ولا تزلزل العواصف أقدامهم مهما قويت، فالنفس هينة رخيصة مادامت تبذل فى سبيل العقيدة، والموت ليس بالخطر الذى يهاب، ما دام ذلك دفاعاً عن الإسلام واستشهاداً فى سبيل الله. ولقد كان المسلمون الأوائل نماذج فذة فى البطولة والتضحية والفداء، وبهذا تهيب العدو بأسهم وخاف سلطانهم، ويقول العقاد فى وصفه لأبطال الإسلام فى حروب الردة: «إذا كانت فتنة الردة قد كشفت عن زيغ وريبة المرتابين، فهى قد كشفت كذلك عن الإيمان اليقين والفداء السمح واليقين المبين، فحفظت نماذج للنصر والشجاعة والإيثار والحمية تشربها صفحات الأديان، وجاءت الشهادة الأولى على لسان رجل من أصحاب طليحة سأله: «ويلكم مايهزمكم» فقال: أنا أحدثك ما يهزمنا. إنه ليس رجل منا إلا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله، وإنا لنلقى قوما كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه».

والمسلمون بفضل ما رسخ فى قلوبهم من عقيدة تحث على البذل والبر والتواد والتراحم والتعاطف، لم يكتفوا ببذل الطعام والشراب للغير، وإنما آثروا إخوانهم على أنفسهم وقدموا ما يمسك حياتهم وإن كانوا فى أشد الحاجة إليه. قال تعالى: «ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيماً وأسيرا» أى يطعمون الطعام وهم فى محبة له، وشغف به.

المسكين العاجز عن الاكتساب، واليتيم الذى مات كاسبه، والأسير المأخوذ من قومه المملوكة رقبته الذى لا يملك لنفسه قوة ولا حيلة، وإن إيثار أصحاب النبى ﷺ بما سابقوا به أنفسهم من فعل الخير، وإيثار الغير على النفس يدعو إلى إكبار وإعظام ما قاموا به. ولقد وجد فى المجتمع الإسلامى كثير من المؤمنين الذين سمت فطرهم وارتفعت غرائزهم يؤثرون غيرهم يطعامهم وشرابهم رغم ما يواجهونه من صعاب، وما يتحملونه من أعباءَ، رجاءَ رحمة الله وإبتغاءَ رضوانه. وإن قوة الإيمان بالله يتجلى أثرها فى الإنسان عند تعرضه لموقف الاختيار بين ماعند الله وعند الناس والمؤمنون حقا يختارون ما عند الله جل شأنه فيضحون بكل

ما يملكون غير خائفين فى الله لومة الائم، يوفون بالعهد ولا ينقضون الميثاق ويبذلون النفس والنفيس، ويطيقون المصاعب بصبر وثبات والنفوس المؤمنة حق الإيمان تنظر إلى الغاية التى تريدها، وتعمل على تحقيقها، وهى فى سبيل الوصول إلى غايتها لاتهاب تكبر المتكبرين ولا تجبر المتجبرين، ولا تحرص على زينة الحياة الدنيا وزخوفتها وترفها، لأنها آمنت بحياة أكبر وأعظم من هذه الحياة، فيها الخلود ، وفيها رضوان الله، قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ** ﴿٢٠٧﴾﴾ [البقرة: ٢٠٧][1]، أى ومن الناس فريق يبيع نفسه لله لا يبغى ثمنا لها غير مرضاته ولا يتحرى إلا صالح العمل وقول الحق، مع الإخلاص فيهما، فلا يتكلم بلسانين، ولا يقابل الناس بوجيهن، ولا يؤثر عرض الدنيا وزخرفها على ما عند ربه، والقلوب المؤمنة تواقة دائماً إلى فعل الخير، حريصة عليه لرفع منزلها، وإعلاء مكانتها عند ربها والمؤمنون كلما أقبلوا على الله وتفانوا فى حبه وطاعته، ازدادوا يقيناً به وإقبالا عليه وتضحية فى سبيل إعلاء كلمته، ولا ترهبهم الدنيا ومن فيها ، ولا يخضعون لتقليد الغرب أو الشرق، ولا يكونون عبيد للمادة.

والمسلمون الأوائل بتمسكهم، بتوجيهات الإسلام استطاعوا أن يوحدوا صفوفهم ويقيمون أمة قوية الجانب، عزيزة الكلمة لقد آثر كل منهم أخاه المسلم بما عنده، وقدمه على نفسه، فغرسوا بفضيلة الإيثار شجرة الأخوة والتراحم، وأكدوا روابط الأخوة بينهم، فسادوا فى الأرض، وكتب الله لهم النصر، وأمتنا الإسلامية فى مطلع القرن الخامس عشر الهجرى فى أشد الحاجة إلى التمسك بالفضائل والقيم الإسلامية.

* * *

(١) البقرة: ٢٠٧.

الرجاء

لقد جاءت رسالة الله سبحانه وتعالى إلى خلقه، ونزل وحيه إلى عباده من كماله وعظمته ورحمته، ما يطبهم ويصلح شأنهم، ويرتقى بهم إلى ما فيه خيرهم جامعا للفرائض، مبينا للحدود، موضحا للمحارم، مشتملا على ما يحيط بذلك من الأوامر والنواهى، متوخيا من الأساليب أقومها فى تربية الناس، ومن المناهج أقواها فى إصلاحهم.

ولقد كان الترغيب والترهيب من أبرز ما عالج به الإسلام شطط الإنسان وجموحه وتمرده على الحقو وما يدور فى فلك ذلك من معصية وانحراف.

الأمر الذى يؤدى فطريا إلى أن تتحرك نفس الانسان من خمود، وأن تستيقظ من سبات، وإن تختلط فيها بواعث الرغبة بعوامل الرهبة وأن تمتزج فيها دوافع الخوف، وموجبات الرجاء.

والرجاءُ فى اللغة هو الطمع فيما يمكن حصوله، ويرادفه الأمل.

والرجاءُ فى الاصطلاح: تعلق القلب بحصوله محبوب فى المستقبل، وقيل: هو توقع الخير ممن بيده الخبر. والرجاءُ: الاستبشار بوجود فضل الرب تعالى والارتياح لمطالعة كرمه. وهو من أجل منازل السالكين وأعلاها وأشرفها.

وفى الحديث الصحيح يقول رسول الله ﷺ فيما يرويه عن رب العزة جل جلاله: «ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك ما كان منك ولا أبالى»(١).

يقول الفيروزابادى فى كتابه (بصائر ذوى التمييز):

الرجاء عبودية وتعلق بالله من حيث اسمه البر المحسن فذلك التعبد والتعلق بهذا الاسم والمعرفة بالله هو الذى أوجب للعبد الرجاء من حيث يدرى ومن حيث لا يدرى.

---

(١) التاج الجامع للأصول: ج ٥ ص ١٦٦، ١٦٧.

فقوة الرجاء على حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته وغلبة رحمته على غضبه.

ولولا روح الرجاء لعطلت عبودية القلب والجوارح، ولولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة، ولولا ريحه الطيبة لما جرت سفن الأعمال فى بحر الإرادات.

لولا التعلق بالرجاء تقطعت ... نفس المحب تحسرا وتمزقا
وكذلك لولا برده لحرارة الأ ... كباد ذابت بالحجاب تحرقا
أيكون قط حليف حب لا يرى ... برجائه لحبيبه متعلقا
أم كلما قويت محبته له ... قوى الرجاءُ فزاد فيه تشوقا
لولا الرجاءُ يحدو المطى لما سرت ... بحمولها لديارهم ترجو اللقا

فالرجاءُ يحفظ على النفس بسطها وتفتحها تطلعها إلى الكمال، وتدرجها فيه واتطلاقها فى أُفق أعلى تحلق فيه بكل أملها فى الله وأمنيتها عنده ورجائها إياه، لا تقيدها عقدة، ولا يحسبها ذنب، ولا يوقف سعيها بأس، ولا يجمد حركتها قنوط ولا يقطع الطريق عليها إلى الله سعار المادة، ولا تعثر الفطرة، ولا يضيق عليها الخنادق أبدا مهما كانت قبضة المعصية أو ضراوة الخطأ أو شراسة الإصم.

والإيمان لا يزكو فى النفس، ولا يستقيم المؤمن بعبادته على الجادة، إلا إذا لَفَّة الخوف من ربه، وغمره الرجاء فيه. وأيقن تماما أن الجنة والنار كليهما أقرب إليه من أى شىء.

ولو يعلم الناس ما لدى الله من العدل والعقوبة، ما أقدم على مصيته أحد، ولو يعلمون ما لدى الله من الفضل والمثوبة ما قنط من رحمته أحد.

ياصاحب الهم إن الهم منفرج	أبشر بخير فإن الفارج الله
اليأي يقطع أحيانا بصاحبه	لاتيأسن فإن الكافى الله
الله يحدث بعد العسر ميسرة	لا تجزعنْ فإن الصانع الله
إذا بليت فثق بالله وارض به	إن الذى يكشف البلوى هو الله
والله ما لك غير الله من أحد	فحسبك الله فى كل لك الله

فالله سبحانه وتعالى لم يطعمنا فى شيء قدر ما أطعمنا فى رحمته ولم يحذرنا قدر ما حذرنا من عقابه، ولم يسرع بشيء قدر إسراعه بقبوله ورضوانه، وقربة لأهل دعائه ورجائه، والأمل فيه والقرب منه.

والإيمان لا يكتمل ، والعبادة لا تستقيم، وإلا إذا حلق المؤمن فى دينه وأعماله بجناحى الخوف والرجاء. من حيث يدفعه الخوف إلى اجتناب التفريط والبعد عن القصور، والتراخى، وضبط النفس على حسن العمل، وإتقان أدائه والإخلاص فيه، ومراقبة الله فى جليله ودقيقه.

والإنسان لا يستوى يقينه ولا يكتمل إيمانه، ولايصلح عمله، ولا تستقيم عبادته ولا تزكو فطرته، إلا بخوفه من ربه ورجائه فيه، ولا يتزن الإنسان ولاتستقيم مسيرته فى الدنيا، ولا يصلح بين يدى ربه ومصيره يوم القيامه، إلا إذا كانت حياته مزيجا من الخوف والرجاء، وأمشاجا من رغبته فى ربه ورهبته منه لذا جاءَ الإسلام يدعونا إلى الخوف من الله سبحانه وتعالى والرجاءِ فيه. الخوف الذى نستشعر فيه عظمة الله وجلاله وقيوميته ومواقبته وخشيته والشعور الموصول بهيبته إلى غير ذلك مما يقود إلى تعظيم محارم الله، واحترام حدوده، والتطبيق الكامل لأوامره، والانتهاءِ التام عن نواهيه.

والرجاءُ الذى يفتح للمؤمن بالله باب الأمل والتطلع إلى ما لدى الله من فضل وما أعده للعاملين المؤمنين من مثوبة، وما وعدهم به من أجر مضاعف ونعيم مزيد ثم ما يمنحه هذا الرجاءُ للإنسان من نعمة التعلق بالله، واللجوءِ إليه:

أن يقبله إذا عثر، وأن ينهضه إذا كبا، وأن يمد إليه يد العون بحبل الإنقاذ والنجدة ساعة الضيق ولحظات الحرج.

فالرجاءُ والخوف جناحان بهما يطير المؤمنون بالله سبحانه وتعالى إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع المقربون كل عقبة كئود.

والمسلمون فى حاجة إلى الإدراك الواعى بعمق مفهوم الرجاء فى الرسالة الإسلامية ولا رجاءَ للمسلمين فى شرق ولا غرب ولا فى مذاهب دبجها سماسرة الفكر البشرى.

فالرجاء كل الرجاء فى الله سبحانه وتعالى، وفى رسالة الإسلام التى جاءنا بها الرسول الصادق الأمين. ويقول عليه الصلاة والسلام «كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاءَ به نبيهم إليهم إلى ما جاءَ به غيره إلى غيرهم».

ولعلنا ندرك فى وضح أن الله سبحانه وتعالى ربط المسلمين برسالة الإسلام وبالاقتداء بصاحب الرسالة الكبرى محمد عليه الصلاة والسلام، حتى لا يضل المسلمون الطريق السليم ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**﴾[1].

ومن هنا كان كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية الراجين الله سبحانه وتعالى صورة حية لحياة الرسول الصادق الأمين، بيانا، وجهادا، وعبادة، وثباتا وإقداما، وحزما.

ولو يعلم الناس ما لدى الله تعالى من فضل ورحمة لأهل خشيته والخوف منه والإجلال له، وأصحاب القرب منه، وللجوء إليه، والرجاء فيه، لأوغلوا فى ذلك، وألحنوا فيه، وأكثروا من طمعهم فى الله.

ويوم أن كان المسلمون يرجون الله سبحانه وتعالى وحده كانوا سادة الدنيا بحق وكان العدو يتهيب بأسهم ويخشى سلطانهم وكان الشرق والغرب يعمل لهم ألف حساب.

---

(١) الأحزاب: ٢١

الأخلاق

الأخلاق الإسلامية على رأس القيم الرفيعة.. وهى محور أساسى ترتكز عليه إنسانية الإنسان.. وهناك قيم كثيرة فى الإسلام، جاءت للحفاظ على المسلم، وحرصاً على إرادته وشخصيته.. إلا أن قيمة الأخلاق تفضل غيرها.

والأخلاق جمع خلق... وقد جاء فى القرآن الكريم، قوله تعالى فى سورة القلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]. وجرى ذلك كثيرا فى اللسان العربى قال سالم ابن وابصة:

يا أيها المتحلى غير شيمته ... إن التخلق يأتى دونه الخلق

وتطلق الأخلاق لغة: على الطبع والسجية والعادة والمروءة والدين وإذا كانت الكتب اللغوية تطلق الخلق على الطبع، وعلى السجية فهل هناك فرق بين المدلولين، أم هما من الألفاظ المترادفة؟ يرى كثير من الباحثين اللغويين أن هناك فرقاً بينهما. وهو أن الطبع يطلق على الخلق الفطرى، فالطبع بسكون الباء هو الجبلة التى خلق الإنسان عليها.. والسجية تطلق على الخلق الفطرى والخلق المكتسب إذا أصبح عادة.. ولعل قول حسان بن ثابت مما يؤيد ذلك :

سجية تلك فيهم غير محدثة ... إن الخلائق فاعلم شرها البدع

والتخلق: تكلف إظهار ما ليس فى الفطرة. وفى حديث عمر رضى الله عنه «من تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه سانه الله».

وكلمة (خلق) بضم الخاء واللام، وردت فى القرآن الكريم مرتين: الأولى فى سورة القلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ والثانية فى سورة الشعراء: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ۝١٣٧﴾.

الأولى جاءت فى مقام المدح. والثانية فى صف ما درج عليه الأولون. والأولى جاءت معيارا لما ينبغى أن يكون والثانية أتت وصفا لما هو كائن. أما ما

ينبغى أن يكون فقد جاءَ للمسلمين من الله سبحانه وتعالى، لا من أحد من الناس، ولا من الشرق ولا من الغرب، لا من أى فكر ابتداعه البشر وما جاءَ من عند الله فقد كان ولايزال كافياً وتاماً، نزل به الروح الأمين على محمد ﷺ وأمر رب العزة أن يكون الرسول هو المطبق العملى لآيات القرآن، وذلك لأنه القدوة الحسنة للمسلمين قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾﴾(١) يقول ابن عباس: يعنى إذا جمعناه وأثبتناه فى صدرك يا محمد فاعمل به.

فكان سلوك النبى فى الحياة الدنيا، تفسيرا عمليا للقرآن الكريم، وحين سئلت عائشة رضى الله عنها عن خلق الرسول ﷺ قالت: «كان خلقه القرآن» يقول الله سبحانه وتعالى موجها ومنبها: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾(٢).

وجاءَ فى كتاب «أدب الدنيا والدين» للماوردى: أن النبى ﷺ روى عنه أنه قال : «إن الله تعالى اختار لكم الإسلام دينا فأكرموه بحسن الخلق والسخاء فإنه لا يكمل إلا بهما». . وقال عليه الصلاة والسلام: «أحبكم إلى الله أحسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون».

والأخلاق فى الإسلام عمل يعمل لا كلاما يقال، عمل مبعثه القلب لا كلام مكانه اللسان. . وهى أيضاً سلوك يهدى إلى طريق الحق.

قال بعض الحكماء: الحسن الخلق من نفسه فى راحة، والناس منه فى سلامة. . والسيءُ الخلق، الناس منه فى بلاءٍ، وهو من نفسه فى عناء، فإذا حسنت أخلاق الإنسان كثر مصافوه، وقل معادوه، وتسلهت عليه الأمور الصعاب، ولانت له القلوب الغضاب.

---

(١) القيامة: ١٨.

(٢) الاحزاب: ٢١.

قال العربى:

إذا لم تتسع أخلاق قوم تضيق بهم فسيحات البلاد
إذا ما المرءُ لم يخلق لبيبا فليس اللب عن قدم الولاد

وحسن الخلق: أن يكون سهل العريكه، لين الجانب، طلق الوجه، قليل النفور، طيب الكلمة، حلو اللسان، ولم تقف الأخلاق فى الإسلام عند هذا الحد - كما يظن البعض - بل نظمت علاقة الإنسان بربه تبارك وتعالى ونظمت علاقة الإنسان بنفسه، وعلاقة الإنسان بالكون، وعلاقة الإنسان بالإنسان، خذ مثلا من تنظيم علاقة الإنسان بربه. قال تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾(٢).

واقرأ فى علاقة الإنسان بنفسه قول الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٣). وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾(٤).

واقرأ فى علاقة الإنسان بالكون قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾(٥). والأمثلة عن كل علاقة

---

(١) الأعراف: ٢٠٥
(٢) الإسراء: ٧٨، ٧٩
(٣) الأعراف: ٢٠٠
(٤) الأعراف: ٢٠١
(٥) آل عمران: ١٩٠

نظمتها الأخلاق فى الإسلام كثيرة.. وقد فاضت بها آيات القرآن الكريم وهى ميسرة لمن أراد أن ينهل.

والأخلاق فى القرآن الكريم تهيمن على جميع النشاط الإنسانى فى الحياة ليتمكن الإنسان من الوصول بإنسانيته إلى خير ما قدر، وخذ من الأخلاق فى القرآن : أدب الحديث.. تجد أن القرآن يأمر فى هذا الباب، حتى بانتقاء الألفاظ الرقيقة.. قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾(٣). وجملة ما يراد أن يقال إن الأخلاق التى جاءَ بها القرآن شملت الحياة كلها فأمرت بالتعاون والمودة والعفة والرحمة والإحسان والصدق، والإخلاص والاستقامة والنظافة والصلاح والإخاء، والعفو والصبر والثبات والشجاعة وحسن الضيافة والتضامن والتكافل والطهر والصفح والعفو والحب والتسامح.. ولم يكتف القرآن الكريم بهذا بل تأكيدا لضبط السلوك وأخلاقيات المسلم.. نهى عن الاعتداء، والعدوان، والبهتان والظلم والبخل والغضب واللمز والحسد والنفاق والخداع والاسراف والغش وقتل النفس بغير حق والكذب ولغو الحديث وشهادة الزور والخلاعة والميوعة والابتذال والارتخاص والخنفسة والعهارة

---

(١) فصلت: ٣٣ - ٣٥.

(٢) الحجرات: ٦.

(٣) النساء: ١٤٨.

والنميمة، والغيبة والخيانة والسرقة والخصومة والسخرية والتنابز والتدابر، والتباغض مما لو فصلته لوجدته كله فى القرآن الكريم.

فالأخلاق الإسلامية جاءت لإعلاء كلمة الحق وإقامة ميزان العدل فى الخلق.. ولا يمكن لأمة أن تحيا بدون أخلاق.. ولا قيمة للعلم ولا حضارة بدون أخلاق.

وهذه حضارة كثير من المجتمعات، قد أفلست رغم التقدم العلمى الهائل الذى حصلت عليه من تكنولوجيا العصر.. فقد ازدادت تلك المجتمعات ضلالا.. وانتشرت فيه نوادى العرى والعربدة والفسق والدعارة والضياع.. وتكاثرت الجرائم بشكل بالغ، وزاد عدد الأطفال غير الشرعيين وضاعت العقول بين الطاس والكاس.. وفقد الناس كل إحساس بالاستقرار والأمن .. ولم يعد هناك طعم للسعادة وصدق الشاعر العربى فى قوله:

فإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فـإن همو ذهبـت أخلاقـهم ذهـبوا

فالحضارة العلمية بدون أخلاق، قد تتدهور وتنتهى.. وكم من الحضارات سادت ثم بادت بسبب الانتهاك العملى لحدود ما شرع الله، وقد حدثنا القرآن الكريم عن كثير من هذه الظواهر.. ومن هنا كان علينا أن نحافظ على الأخلاق الإسلامية التى جاءَ بها القرآن الكريم لنصل بالحضارة الإسلامية فى يقظتها الواعية إلى خير الإنسانية. ولا يصح أبداً أن نمسخ أنفسنا هذا المسخ المشين فنطيل شعر الرؤوس أو نعلق السلاسل فى الرقاب، أو نلهث وراءَ الجنس لهث الكلاب.. ولا يصح لمسلم عاقل أن يجرى وراءَ التقليد الأعمى «لموضات» العصر.. وكل ما هب ودب.

* * *

البر

البر كلمة رائعة، من الكلمات الإسلامية العريقة المنبت، والأصيلة فى الدلول والمفهوم، وهى أغزر الكلمات الإسلامية مادة، وأدقها تصويراً لما يقع تحت فعل الخير، وتعبيراً عما يجول فى النفس، من خواطر ونيات طيبة.

واستطاعت هذه الكلمة فى ظل عالمية الإسلام أن تتمتع وترتفع حتى تصعد أرقى الاختلاجات، فليس هناك معنى من معانى الخير ولا فكر من الأفكار الحسنة، ولا عاطفة من العواطف النبيلة، ولا سلوك من السلوك الإسلامى إلا وله بكلمة البر اتصال وارتباط، ولم أقف فيما قرأت على مفهوم يقارب فى شموله وعمومه واتساعه مفهوم البر فى الإسلام.

والبر فى الإسلام قيمة عليا من القيم الفاضلة، وأساس من أسس مكارم الأخلاق، وبعبارة أقرب وأوجز : البر هو جماع الخير كله.. والبر بالنسبة للإنسان جماع كل فضيلة.. ويتسع المفهوم ليشمل المعانى النفسية والأخلاقية الموجهة وما ينشأ عنهما من أعمال صالحة طيبة يتقرب بها العبد إلى ربه.

وقد كان المسلمون يفهمون معنى البر على هذا الوجه ، ويدركون أن كل عمل صالح أو نية طيبة أو خلق مرضى. شعبة من شعب البر، وقد جاءَ رجل إلى رسول الله ﷺ وسأله عن البر والإثم فقال له رسول الله ﷺ: «استفت قلبك البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب».. وفى آية واحدة من سورة البقرة، يضع الله سبحانه وتعالى قواعد البر فى الإسلام وقواعد التصور الإيمانى.. وقواعد السلوك المنظم، وقواعد الأخلاق وقواعد الصحة، والكمالات النفسية. قال تعالى: ﴿لَيْس الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمغرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّه والْيَوْمِ الآخِرِ والْملائِكَة وَالْكِتَاب وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّه ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَاب وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى

الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[1] .

قال الفيروزابادى فى كتابه «بصائر ذوى التمييز فى ألطاف الكتاب العزيز» وأصل الكلمة ومادتها أعنى (برر) موضوعة لخلاف البحر، وتصور منه التوسع فاشتق منه البر أى التوسع فى فعل الخير، وينسب ذلك تارة إلى الله تعالى فى نحو «إنه هو البر الرحيم» وإلى العبد تارة، فيقال بر العبد ربه أى توسع فى طاعته فمن الله تعالى الثواب، ومن العبد الطاعة. وذلك ضربان: ضرب فى الاعتقاد وضرب فى الأعمال. وقد اشتمل عليها قوله تعالى : «ليس البر أن تولوا وجوهكم». وعلى هذا روى أنه ﷺ سئل عن البر فتلا هذه الآية. فإن الآية متضمنة للاعتقاد، ولأعمال الفرائض، والنوافل، وبر الوالدين، والتوسع فى الإحسان إليهما. ويستعمل البر فى الصدق لكونه بعض الخير. يقال: بر فى قوله وفى يمينه. وحج مبرور: مقبول وجمع البار: أبرار وبررة وخص الملائكة بالبررة من حيث إنه أبلغ من الأبرار . فإنه جمع بر، والأبرار جمع بار، وبر أبلغ من بار، كما أن عدلا أبلغ من عادل. . .

وآية البر هذه هى هذه هى أجمع الآيات فى تحديد معنى البر من النواحى الواقعية والعلمية والسياسية والاجتماعية، فهى ترشد فيما ترشد إلى أن «البر» لا يرتبط بشىءٍ من المظاهر والصور والأشكال وإنما يرتبط بالحقائق وروح الكاليف. .

لذلك يرى علماءُ الأمة الإسلامية أن هذه الآية اشتملت على جمل عظيمة وقواعد عمية، وعقيدة مستقيمة ومن اتصف بهذه الآية فقد دخل فى عرى الإسلام كلها وأخذ بمجامع الخير كله. والآية كما ترى مشتملة على خمس عشرة خصلة، وترجع إلى ثلاثة أقسام جامعة لكل أنواع البر.

فالخمسة الأولى منها تتعلق بالكمالات الإنسانية التى هى من قبيل صحة الاعتقاد وقد بينت الآية ذلك فى قوله تعالى:

---

(١) البقرة: ١٧٧.

﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾.

وماذا فى تلك الصفات من قيم تجعل لها هذا الوزن فى ميزان الله ؟ يقول المفكر سيد قطب: ما قيمة الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين إن الإيمان بالله هو نقطة التحول فى حياة البشرية من العبودية لشتى القوى، وشتى الأشياء، وشتى الاعتبارات إلى عبودية واحدة لله تتحرر بها النفس من كل عبودية وترتفع بها إلى مقام المساواة مع سائر النفوس، وفى الصف الواحد، أمام المعبود الواحد ثم ترتفع بها إلى فوق كل شيء وكل اعتبار.. وهو نقطة التحول كذلك من الفوضى إلى النظام ومن التيه إلى القصد ومن التفكك إلى وحدة الاتجاه.. فهذه البشرية دون إيمانها بالله الواحد، لا تعرف لها قصدا مستقيماً، ولا غاية مطردة ولا تعرف لها نقطة ارتكاز تتجمع حولها فى جد، وفى مساواة كما يتجمع الوجود كله واضح النسب والارتباطات والأهداف والعلاقات.. والإيمان باليوم الآخر وهو الإيمان بالعدالة الإلهية المطلقة فى الجزاء وبأن حياة الإنسان على هذه الأرض ليست سدى ولا فوضى بغير ميزان وبأن الخير لا يعدم جزاءَه ولو بدا أنه فى هذه الأرض لا يلقى الجزاءَ، والإيمان بالملائكة طرف من الإيمان بالغيب الذى هو مفترق الطرق بين إدراك الإنسان وإدراك الحيوان، والإيمان بالكتاب والنبيين هو الإيمان بالرسالات جميعاً والرسل أجمعين، وهو الإيمان بوحدة البشرية ووحدة إلهها ووحدة دينها ووحدة منهجها الإلهى، ولهذا الشعور قيمة فى شعور المؤمن الوارث لتراث الرسل والرسالات..

فإذا انطلق المسلمون بهذه القيم الرفيعة لإحقاق الحق، وإعلاء كلمة الله، وسيادة المنهج الإسلامى فتلك دعوتهم، ولا حياة للمسلمين بدون هذه الدعوة.. والعقيدة الإسلامية تعتبر أصلح العقائد ومنهجها التربوى الموجه للضمائر يعد أصلح المناهج ومن هنا كان على المسلمين أن يواجهوا تحديات العصر أيا كان نوعها وأيا كانت أساليبها وأشكالها بالمنهج الإسلامى.

والنوع الثانى من أقسام البر التى ترجع إليها الخمسة عشر من الخصال التى جاءَت فى آية البر التى معنا يشمل ستة خصال جاءَت بعد الخمسة الأولى منها

وهذه الست تتعلق بالكمالات النفسية التى هى من قبيل حسن معاشرة العباد، وهى قوله تعالى:

﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾.

وهذه الخصال الست تدخل فى البر العمل.. والعمل هو مدد العقيدة، وفى نفس الوقت هو ثمرتها يحفظها وينميها ويدل عليها. «وقيمة المال» هى الإنعتاق من ربقة الحرص والشح والضعف والأثرة.

انعتاق الروح من حب المال الذى يقبض الأيدى عن الإنفاق، ويقبض النفوس عن الأريحية، ويقبض الأرواح عن الانطلاق فهى قيمة روحية يشير إليها ذلك النص على حب المال، وقيمة شعورية أن يبسط الإنسان يده وروحه فيما يحب من مال، لافى الرخيص منه ولا الخبيث فيتحرر من عبودية المال. وهذه العبودية التى تستذل النفوس، وتنكس الرؤوس، ويتحرر من الحرص والحرص بذل اعناق الرجال وهى قيمة إنسانية كبرى فى حساب الإسلام الذى يحاول دائماً تحرير الإنسان من وساوس نفسه وحرصها وضعفها قبل أن يحاول تحريره من الخارج فى محيط الجماعة ارتباطاتها، يقينا منه بأن عبيد أنفسهم هم عبيد الناس وأن أحرار النفوس من الشهوات هم أحرار الرؤوس فى المجتمعات ثم إنها بعد ذلك كله قيمة إنسانية فى محيط الجماعة..

النوع الثالث يشمل الأربعة الأخيرة من الخصال التى جاءت فى الآية، وهى خصال تتعاق بالكمالات الإنسانية التى هى من قبيل تهذيب النفس جاءَ فيها قوله تعالى:

﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

فقد جاءَ بعد إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، مبدآن هامان من مبادىء البر فى الخلق.

المبدأ الأول : مبدأ القيام بالواجب، وقد عبرت عنه الآية: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾.

والعهد لفظ شامل يجمع ألوانا من الارتباطات والالتزامات لا غنى للنفس عنها ولا استقامة للحياة بدونها. أو عهد بين الإنسان والإنسان . أو عهد بين الدولة والدولة. وعهود الله مع عباده كثيرة منها العام ومنها الخاص. قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(١).

وحظ الناس اليوم من هذا العهد هو ترابط المصلحين والدعاة على مبدإِ الخير والصلاح والإِصلاح والتربية والتوجيه. أما عهود الناس بعضهم مع بعض، فهى تتمثل فيما يحدث بينهم من عقود والتزامات مالية أو غير مالية.

أو فيما يحدث بين الأمة والأمة فى تحديد الحقوق والالتزامات وكلها يجب الوفاءُ بها ما لم تكن فى معصية الله.

والوفاءُ بالعهد سمة الإِسلام التى يحرص عليها ويكررها القرآن كثيراً ويعدها آية الإِيمان الآدمية وآية الإِحسان وهى ضرورة لإِيجاد جو من الثقة والطمأنينة فى علاقات الأفراد، وعلاقات الجماعات، وعلاقات الأمم والدول، تقوم ابتداءً على الوفاءِ بالعهد مع الله، وبغير هذه السمة يعيش كل فرد مفزعاً قلقاً لا يركن إِلى وعد ولا يطمئن إِلى عهد، ولا يثق بإِنسان من الوفاءِ بالعهد لأصدقائه وخصومه على السواءِ، قمة لم تصعد إِليها البشرية فى تاريخها كله، ولم تصل إِليها إِلا على حداء الإِسلام وهدى الإِسلام.

والمبدأُ الثانى: مبدأ مقاومة الطوارىءِ والتغلب على عقبات الحياة، وقد عبرت عنه الآية:

﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾.

والصبر عدة النجاح فى الحياة، والسبيل الوحيد للتغلب على جمع الصعاب.

---

(١) يس: ٦٠.

إِن الصبر فى الإِسلام هو الرجاءُ فى الله والثقة بالله والاعتماد على الله. ولابد للأمة الإِسلامية التى نيطت بها القوامة على البشرية والعدل فى الأرض، والتى هى خير أمة أُخرجت للناس، ولابد لها أن تهيءَ نفسها لإِصلاح البشرية، وتتجمل بالصبر، وقوة التحمل.

وهكذا تبين آية البر فى سورة البقرة، أن الأمة الإِسلامية هى أُمة القيادة والتوجيه. وأن لها فى هذا العالم صدارة يجب ألا تفرط فيها. ومن هنا كان على المجتمعات الإِسلامية أن تحافظ على خصال البر التى جاءَ بها الإِسلام.. وهى تشمل البر فى العقيدة، والبر فى العمل ، والبر فى الخلق.

* * *

النصيحة

إن الأخلاق التى تدفع إلى الرقى والنجاح دفعا وتؤدى إلى الفوز والفلاح حتما هى القوى النفسية التى يعبر عنها علماءُ النفس بالملكات المستقرة فى النفوس، فهى التى تطبع الإنسان فى أية مسألة من مسائل الحياة بطابعها، فمن كانت عنده ملكة الصدق يصدق دائماً، ومن كانت عنده النصيحة لا يتخلف عن بذلها، ومن كانت عنده ملكة الشجعة لا يجبن أبدا.. وهذه الملكات تكتسب بالتربية والمران والإعداد، وهذا الميدان الذى يتفاضل الناس فيه ويرتفع بعضهم على بعض درجات..

والمجتمع الإسلامى الواسع أحوج ما يكون إلى أخلاق فاضلة تهذب سلوك الأفراد والجماعات، وتقوى الروابط، وتزيل الاختلاف الذى قد ينشأُ بين الأفراد والجماعات. ولقد كان من فضل الله على الأمة الإسلامية أن كفل لها أمور الخير ويسر لها الوحدة الكاملة، والرابطة القوية، والتجمع الهائل.. وذلك بما أرسل لها من رسول كريم هو محمد عليه الصلاة والسلام الذى اختصه الله بالرحمة الشاملة.. وبما أعطاها الله من كتاب كريم هو القرآ الكريم .. وبما كلفها الله من عقيدة تلزم المسلم ببذل الخير فى صدق وإخلاص حتى تتكون ثقة الأفراد بعضهم مع بعض على أُسس من الود والصفاءِ والمحبة والإخاءِ والتعاون والتآزر.

ليقوم حال المجتمع الإسلامى، ويتجه إلى البناءِ، وتثبيت دعائم الحضارة والأمن وتوطيد أركان الإخاءِ. والدعوة الإسلامية فى ذاتها: دعوة من شأنها تقوية الصلة بين الناس ، ورفع لواءِ السلام بين المسلمين، وبين المسلمين والإنسانية وبعث الأُلفة والانسجام، لذا وضح الإسلام فى دعوته وإرشاداته، وتوجيهاته المحافظة على النصيحة والتناصح، ليظل المجتمع الإسلامى قوياً.. وها هو القرآن الكريم يقرر بصفة قاذعة حاسمة أن بين المؤْمنين أخوة دائمة لا تنقطع ما داموا مؤمنين. قال تعالى فى سورة الحجرات.. ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا

اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾[١] قال القرطبى فى كتابه «الجامع لأحكام القرآن» أى أُخوة فى الدين والحرمة لا فى النسب ولهذا قيل أُخوة الدين أثبت من أُخوة النسب فإن أُخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين وأُخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب، وفى الحديث المتفق عليه جاء فى رياض الصالحين أن رسول الله ﷺ قال : «مثل المؤْمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[٢]. روى ابن كثير وقال : تفرد به أحمد ولا بأس بإسناده، قال رسول الله ﷺ: «إن المؤْمن من أهل الإِيمان بمنزلة الرأْس من الجسد يأْلم المؤْمن لأهل الإِيمان كما يأْلم الجسد لما فى الرأْس»[٣].

والمسلمون فى ظل الإِيمان تربطهم وحدة هائلة: وحدة المفاهيم الأساسية والاعتقادية فى الحياة الدنيا، وفى الحياة الآخرة، ووحدة فى المثل الأخلاقية ووحدة القيم والمقاييس الخلقية. . والإِسلام لم يقف بالمسلمين عند هذا الحد، بل دعا إِلى مفاهيم وأخلاق من شأْنها أن تزيد غراس الوحدة الإِسلامية، عطاءً ونماءً وقوة.

وانطلاقا من المفاهيم الإِسلامية التى دعا إِليها الإِسلام الحنيف، جعل الإِسلام العصبيات بأنواعها سواءٌ كانت إِقليمية، أو قومية أو قبلية، عرفية، أو نزعة سياسية، جعلها فسوقا، وخروجا عن أدب العقيدة ويقول أحد علماء الفكر الإِسلامى «إن رابطة العقيدة فى الاسلام - وهى رابطة فى المبادىءِ والمثل العليا والأُخوة على صعيد هذه المثل العليا فى الحق والخير وتلك التعاليم - هى أعلى وأقوى من رابطة الدم والنسب والمساكنة فى الوطن، والمشاركة فى القومية. وهذا الأساس هو المنطلق الوحيد للخروج من قوقعة الأنانيات الفردية والقبلية القومية إِلى صعيد اللقاء الإِنسانى على أساس مبادىءِ الحق والعدل والخير. وفى هذا الإِطار التربوى النفسى ذاته عالج الإِسلام النفس الإِنسانية، إِعدادا لها لتحقيق التعارف والتعاون فعالج آفاتها وأمراضها الحائلة، دون التعاون، كالحسد والحقد

(١) الحجرات: ١٠.

(٢) رياض الصالحين ١٢١.

(٣) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢١٢ وقال ابن كثير: عنه تفرد احمد ولا بأس باسناده.

والغل، التى تثيرها دوافع النفعية للذات الفردية أو القبلية أو القومية وتزيلها دوافع إرضاء الله والرغبة فى حسن ثوابه.

والنصيحة فى الإسلام، خلق إسلامى رائع، وأسلوب تربوى مفيد، ومفهوم من المفاهيم الإسلامية. والنصيحة أم الفضائل الإنسانية ربما لم يخل منها دين من الأديان السماوية. وقد ذكر القرآن الكريم أن الرسل قد نصحوا أقوامهم جاءَ فى شأن نوح عليه السلام مع قومه.. فقال تعالى فى سورة الأعراف: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾(١). وقال تعالى فى سورة هود: ﴿وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾(٢).. وجاءَ فى سورة الأعراف فى شأن هود مع قومه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾(٣) وفى شأن صالح مع قومه جاءَ قوله تعالى فى سورة الأعراف أيضاً: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾(٤).

وليس هناك أضر على الأفراد والجماعات، من تركهم فى تصرفاتهم الخاطئة دون تقديم النصح لهم.. لأن ذلك يؤدى إلى الاستمرار فى الخطأ، والوقوع فى الشر.. لذا أوجب الإسلام النصيحة كحق من حقوق المسلم على المسلم.. وجاءَ فى كتاب «دليل الفالحين شرح رياض الصالحين» أن النصيحة كلمة جامعة مهناها حيازة الخير للمنصوح له. وهى مأخوذة من نصح الرجل ثوبه إذا خاطه، وقيل مأخوذة من نصحت العسل إذا صفيته من الشمع، شبه تخليص القول من الغش بتخليص العسل من الخلط.. روى مسلم والبخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «حق المسلم على المسلم ست: إذا لقيته فسلم عليه. وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد لله فشمته، وإذا

(١) الأعراف: ٦٢.
(٢) هود: ٣٤.
(٣) الأعراف: ٦٨.
(٤) الأعراف: ٩٣

مرض فعده، وإذا مات فاتبعه»[١]. ومن هذا المنطلق الإسلامى، صارت النصيحة أصلا من أصول العلاقة فى كل مجال من مجالات المجتمع ولم يجعل الإسلام حدا للنصيحة، وصورة معينة، حيث ترك للمسلمين الوسائل التى تتحقق بها، وفق متطلبات الحياة، ومقتضيات الأعمال فقد تكون قولية أو فعلية وقد تكون صراحة أو ضمنا.. وقد تكون جملة أو تفصيلا.. وقد تكون مباشرة أو غير مباشرة.. ويرى العلماءُ: أن النصيحة بين المسلمين لازمة على قدر الحاجة إذا علم الناصح: أنه يقبل نصحه، ويطاع أمره، وأمن على نفسه المكروه، فإذا خشى أذى، فهو فى سعة.

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يبايعون الرسول ﷺ على النصح والتناصح، وقد بايع رسول الله ﷺ جابر بن عبد الله الصحابى الجليل على النصح لكل مسلم، جاءَ فى رياض الصالحين من حديث متفق عليه، عن جابر ين عبد الله رضى الله عنهما قال: «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم» وروى مسلم والبخارى عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض، وإذا استنصح أحدكم أخاه فلينصحه» وجاءَ فى كتاب الخراج لأبى يوسف، قال رسول الله ﷺ : «ثلاث لا يغل عليهن قلب مؤمن : إخلاص العمل لله، والنصيحة لولاة المسلمين، ولزوم جماعتهم فإن دعواتهم تحيط من ورائهم ».. وروى مسلم عن أبى رقية تميم بن أوس الدارى رضى الله عنه، أن النبى ﷺ قال : «الدين النصيحة قلنا لمن ؟ .. قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[٢].

والنصيحة لمن يطلبها يلتمسها عند أهلها، ومن أصحاب القلوب المؤمنة والعقول الراجحة، والضمائر الحية.. فليس كل الناس سواءٌ. وللنصيحة أغراضها

---

(١) الجامع الصغير ج ١ ص ٢٢٤. والحديث رواه البخارى ومسلم فى الأدب.

(٢) رياض الصالحين ص ١٠٢

سواءٌ كانت من الناصح أو المنصوح ولذا قيل لا تشر على مستبد، ولا على وغد، ولا على معجب، ولا على متلون.

وقال أبو الحسن البصرى الماوردى: «أعلم أن من الحزم لكل ذى لب، وأن لا يبين أمرا، ولا يمضى عزماً، إلا بمشورة ذى الرأى الناصح ومطالعة ذى العقل الراسخ. . فإن الله تعالى أمر بالمشورة، نبيه ﷺ مع ما تكفل به من إرشاده ووعد من تأييد، فقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[1] فأمر بمشاورتهم ليستن به المسلمون ويتبعه فيها المؤمنون.

وإذا كان هذا هو أدب الإسلام للمسلمين فيما يطرأ بين الأفراد والجماعات من أمور تقتضى بذل النصيحة. . فإن كل ذلك جاءَ من أجل الحفاظ على وحدة المسلمين، وتكامل أخوتهم. . وأى توجيه وأى تهذيب، وأى دعوة، وأى تربية إلى الفضيلة والشرف أقوى من المفاهيم الإسلامية التى جاءَ بها الإسلام. . وإننا كأمة إسلامية لها تراثها الحضارى، وجغرافيتها المتميزة ومكانتها الهائلة، جدير بنا أن نعالج ما قد يحدث بالنصيحة والتناصح لنصل إلى خير ما قدر.

* * *

(١) آل عمران: ١٥٩.

التعاون

التعاون قوام الأمم وملاك أمرها ومدار نظامها وحياتها وهو عماد الرقى والمدنية وأساس كل تقدم وفلاح..

ما فرطت فيه أمة من الأمم ولا جماعة من الجماعات إلا كان التفرق شعارها والتخاذل عنوانها.

وذلك لأن التعاون قوة معنوية لا تضارعها قوة فى ربط المجتمع وتقوية أركانه.

وقد اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يكون الاحتياج إليه أمرا فطريا فى الإنسان.

إذ يصعب على الفرد أو جماعة إنسانية معينة أن تعيش بمعزل عن الجماعات الأخرى.

وإذا كان التعاون بين المجتمعات الإنسانية واجبا لدفع عوادى الطبيعة واتقاء مخاطر الوحدة فإن التعاون بين الشعوب الإسلامية أوجب.

لأن تعاليم الإسلامية صراحة وضمنا أمرت بتعاون الجماعة والأخوة والمحبة.

والقرآن الكريم أعطانا من الدروس فى التعاون ما يزيدنا تقدما وتفتحا ووعيا، وهذا نبى الله موسى عليه السلام، وعندما أمره رب العزة بالذهاب إلى فرعون الطاغية ليبلغه رسالة السماء، طلب من الله أن يشرح صدره ويجعل له معيناً وناصرا يعاونه فى القيام بأعباء ما كلف به من قبل ربه ويلتجيء إليه فى أمره، وأن يكون من أهله رجاء أن يكون أشد عونا له وأكثر نصره من غيره.

قال تعالى حاكيا عنه: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ

أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴾[١].

وإن الناظر فى الدين الإسلامى وما جاءَ به من أُسس حكيمة لبناءِ مجتمع القوة، وإرشادات قوية ومبادىءَ سامية للأخذ بيد المجتمع إلى أقوم السبل كل ذلك يرينا الروح التعاونية السارية فى كل ما أتى به من أُسس وإرشادات ومبادىءَ.

أليس هو الدين الذى للإنسانية جمعاءَ به عزها وسعادتها لو تمسكت به وسارت على هديه وعملت بمقتضى تعاليمه.

وهذا رسول الله ﷺ يمكث فى مكة بعد البعثة زهاءَ ثلاثة عشر عاما يدعو الناس خلالها إلى الإسلام سرا وعلانية.

وكان يعاونه فى ذلك أصحابه الكرام الذين آمنوا برسالته وشرح الله صدورهم للإسلام.

وعلى رأسهم أبو بكر الصديق ذلك الصاحب الذى بذل مع الرسول ﷺ فى سبيل رسالة الإسلام وتبليغها غاية جهده.

ثم انظر كيف يتضرع رسول الله ﷺ إلى الله عز وجل أن يعز الإسلام بإسلام أحد العمرين: عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام.

ولما كان التعاون على الخير والتضامن فى الأعمال النافعة كفيلا بالسعادة ومبشرا بالسيادة.

حث الله سبحانه وتعالى عليه وبالغ فى ذلك فقال جل شأنه، ﴿وتعاونُوا على الْبرّ والتَّقْوىٰ ولا تعاونُوا على الإِثْم والْعُدْوان واتَّقُوا اللّه إنّ اللّه شديدُ الْعقاب﴾[٢].

---

(١) طه: ٢٥ ـ ٢٦.

(٢) المائدة: ٢.

وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1].

والعالم الإسلامى فى حاجة إلى التعاون فى كل شيء وخاصة فى الميادين الدولية التى تقتضى اتحاد الكلمة والوقوف بجانب الحق. ومن التعاون فى الإسلام:

أولا: التعاون المادى:

فإن كل من تأمل فى كل جزئية من جزئيات الدين الإسلامى وتطلع إلى تعاليم القرآن الكريم وإلى الآيات التى جاءت بنداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يتبين له أن التعاون حال فى تلك التعاليم حلول الروح فى الجسد.

وفى الزكاة يظهر التعاون المادى بأجلى معانيه حيث تقوى الرابطة ويعم الحب والوئام ويسود السلام والنظام.

ولذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾[2].

والشارع الحكيم هدد من بخل بها مع القدرة علها بالوعيد الشديد.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾[3].

---

(١) الأعراف: ٩٦.

(٢) الأنفال: ٢، ٣.

(٣) التوبة: ٣٤، ٣٥..

وروى مسلم فى صحيحة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لايؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفت له صفائح من نار فأحمى فى نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره كلما بردت أعيدت له فى يوم مقداره خمسين ألف سنة . . .».

.. وروى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: «من أتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ مهلزمتيه «شدقيه» ثم يقول : أنا مالك أنا كنزك تم تلا : ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾(1). وذلك أن إخراج الزكاة عامل هام من عوامل تآلف القلوب وتجاذب النفوس وتضافرها.

ثانياً : التعاون العملى:

ويقصد به المشاركة الفعلية، وقد ضرب الرسول ﷺ أكثر من مثل فى التعاون العملى ولنا فيه أسوة حسنة وقدوة صالحة كما قررر القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾(2).

وروى أنه عليه الصلاة والسلام كان فى سفر فأمر بإعداد شاة فقال رجل: يارسول الله على ذبحها. وقال آخر : وأنا على سلخها. وقال ثالث : وأنا على طبخها، فقال رسول الله ﷺ: وعلى جمع الحطب، فقالوا: يارسول الله نكفيك العمل. فقال : علمت أنكم تكفوننى ولكنى أكره أن أتميز عليكم وإن الله سبحانه وتعالى يكره من عبد أن يراه متميزا بين أصحابه.

وعلى نهج الرسول الكريم سار أصحابه الكرام، فهذا أبو بكر الصديق رضى الله عنه يحلب للحى أغنامهم فلما استخلف قالت جارية منهم: الآن يحلبها فقال أبو بكر: بلى وإنى لأرجو ألا يغيرنى مادخلت فيه عن شيء كنت افعله.

---

(١) آل عمران: ١٨٠.

(٢) الأحزاب ٢١.

وهذا عمر بن الخطاب يتعاهد الأرامل فيستقى لهن الماءَ بالليل ورآه طلحة بالليل يدخل بيت امرأة، فهل إليها طلحة نهارا فإذا هى عجوز عمياءُ مقعدة، فسألها: ما يصنع هذا الرجل عندك؟ قالت: هذا منذ كذا وكذا يتعاهدنى يأتينى بما يصلحنى ويخرج عنى الأذى. فقال طلحة: ثكلتك أمك يا طلحة أعورات عمر تتبع؟

وقال مجاهد: صبحت ابن عمر فى السفر لأخدمه فكان يخدمنى.

وما حدث من الأنصار مع إخوانهم المهاجرين لأكثر دليل على فاعلية التعاون العلمى فى رحاب الإسلام. قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[١].

وقال رسول الله ﷺ موضحاً للمسلمين أُسس التعاون المادى الذى يكفل سلامتهم ونجاحهم فى الحياة: «أتدرى ما حق الجار: إذا استعانك أعنته، وإذا استقرضك أقرضته، وإذا افتقر عدت عليه، وإذا مرض عدته، وإذا أصابه خير هنأته، وإذا أصابته مصيبة عزيته، وإذا مات اتبعت جنازته، ولا تستطل عليه بالبنيان فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، ولا تؤْذه بقتار ريح قدرك إلا أن تغرف له منها، وإن اشتريت فاكهة فاهد له منها فإن لم تفعل فأدخلها سراً ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده»[٢].

ثالثا: التعاون الروحى:

ويكون بالمشاركة القلبية والوجدانية والعمل على إزالة كرب المكروبين.

روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريـرة رضى اللـه عنـه قـال: قال رسول الله ﷺ: «من نفس عن مؤْمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب

(١) الحشر: ٩.

(٢) رواه الخرائطى من مكارم الأخلاق. وانظر الترغيب والترهيب للمنذرى (ج ٣ ص ٥٨٥) الناشر مكتبة الجمهورية.

يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والاخرة، والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه».

وروى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة سياحين، يطوفون ى الطريق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله عز وجل تنادوا هلموا إلى حاجتكم. قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا. قال: فيسألهم ربهم: وهو أعلم بهم، ما يقول عبادى؟ قالوا: يقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك. قال: فيقول: هل رأونى؟ فيقولون: لا والله ما ورأوك. فقال فيقول: كيف لو رأونى؟ قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيداً وتحميداً وأكثر تسبيحاً، قال: فيقول فيما يسألوننى؟ قالوا: يسألونك الجنة. قال: يقول وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يارب ما رأوها. قال: فيقول فكيف لو رأوها؟ قال يقولون: لو رأوها كانوا أشد عليها حرصاً، وأشد لها طلباً وأعظم فيها رغبة. قال: فمم يتعوذون؟ قال: يقولون من النار. قال: يقول وهل رأوها؟ قال يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارا وأشد لها مخافة. قال: يقول: أشهدكم أنى قد غفرت لهم. قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم إنما جاءَ لحاجة. قال: هم الجلساءُ لا يشقى بهم جليسهم».

* * *

التقوى

لن يعرف البشر منهجاً أمثل من منهج الإسلام، وهو يبصرهم ربهم، وهم عباده، ومن حق الربوبية إعظامها، ومن واجب العبودية أن يعيش المرءُ في حجمه، وأن يشعر بمكانه، وأن يدرك طبيعته، فالإنسان مخلوق لربه الخالق، وعبد لربه العلي الأعلى، والإنسان محدود الطاقات، والمواهب، محصور القدرات، مختلف الأحوال، تحت سلطان إله قادر قاهر، وسعت قدرته وعلمه وحكمته ولطفه وعظمته كل شيء ما كان وما هو كائن، وما سيكون، ومخلوق كالإنسان على هذا النحو من المحدودية والضعف والعجز لإله له كل هذا الجلال والكمال والجمال لابد أن يشعر نحو ربه بكل الإعظام له والخشوع إليه، من هنا جاءَ الإسلام يدعو المسلمين إلى عبادة الله وحده. وإذا كان الله هو الكمال المطلق، فعبادة الإنسان لله هى أن يتجه إليه جل جلاله فى صلاته، ويلحظه دوما فى معاملاته، ويرقبه فى تصرفاته، وبذلك يكون الكمال المطلق هدفه، والتجرد عن الهوى فى كل ما يباشره بطبيعته الإنسانية فى طريق للوصول إلى هذا الهدف. وتقوى الله تبارك وتعالى خير ما تعين الإنسان على الوصول إلى الهدف، ولهذا نجد الإسلام يخص عليها، ويأمر بها ويرغب فيها ويدعونا أن نمنحها حقها الواجب وقدرها المستطاع من الطاقات والقدرات فى النفوس، والوجدانات، والضمائر، والأخلاق والسلوك وفى شتى أنماط الحياة، وصور التعامل.

والتقوى من القيم الإسلامية الرفيعة، والتى جاءَت فى اللغة العربية من الفعل الثلاثى «وقى» والوقاية مصدر بمعنى الحفظ والصيانة. ويرى الزمخشرى أن المتقى فى اللغة اسم فاعل من قولهم: وقاه فاتقى. والوقاية فرط الصيانة. والمتقى فى الشريعة الذى يقى نفسه تعاطى ما يستحق بع العقوبة من فعل أو ترك.

والتقوى بمعنى الاتقاء والاتقاءُ أحد الوقاية. والتقوى الاحتراز بطاعة الله عن عقوبته وهو صيانة النفس عما تستحق من فعل أو ترك. والتقوى فى الطاعة يراد

بها الترك والحذر. وسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه أُبياً عن التقوى؟ فقال: هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم. قال: فما عملت فيه؟ قال: تشمرت وحذرت. قال: فذاك التقوى. وقد أخذ هذا المعنى ابن المعتز فنظمه فى قوله:

خلِ الذنوب صغيرها ... وكبيرها ذا التقى
واصنع كما فوق أر ... ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة ... إن الجبال من الحصى

وقال طلق بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، تخاف عقاب الله.

ولعلنا ندرك فى وضوح أن ميزان العمل فى الإسلام ليس ميزاناً نظرياً، ولكنه، كما يرى العلماءُ ميزان قائم فى صميم العمل، وفى قلب الخبرة، فلا يكفى لأن يكون المسلم مسلماً أن ينطق بالشهادتين ويعرف أن الله موجود، ويثبت وجوده بأدلة عقلية، ولكن لابد أن يعرفه عن طريق العبادة التى شرعها الله وهى الصلاة وعن طريق العبادات الأُخرى المفروضة. وليس المسلمون جميعاً شواءً من حيث أسلافهم إذا كانوا جميعاً معتقدين بوجود الله وملائكته ورسوله والبعث ويقيمون الصلاة ويؤدون الزكاة، بل لكل منهم منزلة وفيعة وقيمة بمقدار سلوكه وعمله وأداءِ العبادات، والميزان الجديد الذى جعله الإسلام لمعرفة قيمة أعمال المرءِ هو التقوى، وتقوى الله تبارك وتعالى حين يخصنا الإسلام عليها، ويدعونا إليها يرغب أن تكون لدى المسلمين الوقاية الذاتية، والمتابعة الأمنية والمحاسبة الدائبة، والمراجعة الدقيقة، لكل ما يصدر عن الإنسان فى السر والعلن فى النفس والأُسرة والمجتمع فى اليسر والعسر والمعرفة والثقافة والعلم والأخذ والعطاءِ، والبيع والشراءِ والحل والترحال والمجالس والنتديات، ثم فى سائر ما فى الوجود من مظاهر الحياة والأحياءِ.

والتقوى إحساس خاص برقابة الله، وبأن الله أقرب إلى الإنسان من نفسه، وما يشعه ذلك الإحساس فى القلب البشرى من حساسية وإرهاق. والتقوى حالة

فى القلب يشير إليها اللفظ بظلاله، وحالة تجعل القلب يقظا حساساً شاعراً بالله فى حالة، وخائفاً متحرجاً مستحيياً أن يطلع عليه الله فى حالة يكرهها. والآيات الكريمة التى جاءت فى التقوى كثيرة حتى أن كلمة التقوى تأتى فى عشرات الآيات، بل يتكرر ذكرها فى الآية الواحدة. قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[1]. والتقوى الأولى عن الشرك، والتقوى الثانية عن البدعة، والتقوى الثالثة عن المعاصى الفرعية. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[2]. أى اتقوا الله حق تقاته وذلك بدوام خشيته والعمل بموجبها.

وقال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾[3]. يقول الخطيب فى تفسيره: «نبه الله سبحانه وتعالى» عباده إلى أن هناك زاداً باقياً يجب عليهم أن يحرصوا عليه، وأن يجتهدوا فى تحصيله، وهو التقوى فهى الزاد الطيب الباقى الذى يعينه على الوصول إلى الله، والتعرض لهواطل رحمته وغيوث رضوانه، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ تنويه بشأن العقل للعقلاء الذين يحترمون عقولهم ويستجيبون لما تدعوهم إليه من إيثار ما يبقى على ما يفنى، وشراء الآجل بالعاجل، فالعقلاءُ الراشدون هم أولى الناس بأن يرجى عندهم الخير ويؤمل فيهم الاستقامة والهدى.

والتقوى لا تقوم فى كيان إنسان إلا وسعها العلم وذلك أنه إذا نظر الناظر إلى هذا الوجود بعين العالم وبأجهزة العلم رأى فى اختلاف الليل والنهار وفى تعاقبهما لمحة مشرقة من لمحات حكمة الله وقدرته، وعلمه ففى الاختلاف بين الليل والنهار ضمان وثيق لكفالة الحياة للكائنات على هذا الكوكب الأرضى. فما كانت لتطيب

---

(١) المائدة: ٩٣.

(٢) آل عمران: ١٠٢.

(٣) البقرة: ١٩٧.

الحياة أبداً بل ولا تقوى الحياة بحال للمخلوقات وخاصة الإنسان لو أن الزمن كان نهارا دائماً أو ليلا مستمراً، وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١].

وليست هذه هى معطيات النظر فى اختلاف الليل والنهار بل هى معطيات فى كل نظرة ينظر بها إلى كل ما خلق الله فى السموات والأرض من الهباءة والذرة إلى الشموس والكواكب. ففى كل ما خلق الله لمسات من حكمته، وأقباس من عمله ونعماتمن رحمته، وآثار من قدرته. والنظر المتفحص الذكى هو الذى يكشف عن وجود الله، ويحدث عن جلاله وعظمته وتفرده بالخلق والأمر، ومن هنا ينبعث الإيمان بالله ويقوم الولاءُ له وتتحقق التقوى للمتقين من عباده روى أحمد عن علقمة عبد الله المزنى عن رجال من أصحاب النبى ﷺ أنه قال: «من كان يؤمن بالله واليوم آلآخر فليتق الله عز وجل وليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليتق الله ليقل خيراً أو ليسكت».

ولهذا كله كانت التقوى معنى إيجابياً ينفرد بالحفظ والصيانة والوقاية التى تنشأ ثمرة للأعمال الصالحة فتكون بذلك رداءً يقى الإنسان السوءَ ويحصنه من الشقاءِ فى الدنيا والعذاب فى الآخرة.

ومن خصائص المؤمنين أنهم متقون يتميزون على غيرهم بالوقوف عند حدود ربهم، لا يشغلهم شيءٌ عن طاعة الله، ولا تستويهم المعاصى مهما كان فيها المسلم دائماً أمام مواقف صعبة فلذلك يتسلح بالخشية ويتقوى بالرجاء، فيتخطى الصعاب ويحقق فى حياته أعمالا يثبت بها أنه أقوى من إغراءِ الحرام، وأصبر على الاستقامة على دين الله.

---

(١) القصص: ٧١ ـ ٧٣.

والمتفرس يدرك أن الإسلام دين الحياة وروحها ومظهر الحياة فى الإسلام كدين جاءَ ليعطى من شأنها إنما يبدو عمليا فى الإنسان الذى يؤْمن به ويتمثله ضميره، وتترجمه أخلاقه ويتجسده سلوكه والمجتمع الإسلامى الحق هو الذى يدرك أوامر الله، ويكون عند حسن ما طلب الله منه، ودعا إليه من يقين وأخلاق وفضائل والتقوى مصباح المؤْمنين عندما يدلهم بهم الظلام، والنجم الهادى عندما تحيط بهم الشكوك وتزلزلهم الريب. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[١].

وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ومن معه من الأجناد الذين توجهوا لحرب الفرس بعد أن علموا أن الفرس أعدوا جيشاً لمهاجمة المدينة كتب إلى القائد يعد يقول: «أما بعد فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة فى الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصى منكم من عدوكم فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم. وإنما ينصر الله المسلمين بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم. فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل فى القوة وإن لم ننصر بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا. فاعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون. فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيله، ولا تقولوا عدونا شر منا فلن يسلط علينا، فرب قوم سلط عليهم شر منهم».

وهكذا كانت الوصية بالتقوى فى المقام الأول عند المسلمين العاملين ولا سيما عند تجدد الظروف المناسبة التى يمكن أن تكون معينا لا ينضب للتقوى، ومددا يغذيها بين جوانح المتقين.

* * *

---

(١) الأعراف: ٩٦.

١ - القرآن الكريم

٢- كتب التفسير .... القرطبى وابن كثير والواضح والألوسى والمنار

٣- كتب السنة .... البخارى وصحيح مسلم

٤- الدين والحياة .... وزارة الأوقاف

٥- علم الأخلاق .... للدكتور مزروعة

٦- تاريخ النظريات الأخلاقية ..... الدكتور أبو بكر ذكرى

٧- الدعوة الإسلامية .... الدكتور أحمد غلوش

٨- تأملات فى فلسفة الأخلاق .... الدكتور أبو بكر ذكرى

٩- الدين والحضارة .... الدكتور محمد البهى

١٠- نهضة الداعى .... الأستاذ عبد المنصف محمود

١١- ضحى الإسلام .... لأحمد أمين

١٢- ظهر الإسلام .... لأحمد أمين

١٣- الموسوعة القرآنية .... ٦ مجلدات للأستاذ إبراهيم الإبيارى وعبد الصبور مرزوق

١٤- بصائر ذوى التمييز .... ٦ مجلدات للفيروزابادى

١٥- ندوة المحاضرات .... ١٠ مجلدات (السعودية)

١٦ - مجلة الجامعة .... (المدينة المنورة)

١٧ - قافلة الزيت....................... (السعودية)

١٨- الندوة........................ (مكة المكرمة)

١٩- الخفجى........................ (السعودية)

الفهرس

رقم الإيداع ١٩٩٧/٢٦٤٧

ISBN

977-294-013-2

مركز الكتاب للنشر